

د. أحمد عبد الوارث

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

الحسد من المنظور الإسلامي والأدبي



إهداء ٢٠١٠
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٧٣٤]

رئيس التحرير

إسماعيل منتصر

بطاقة القاهرة
إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

مرسى ، احمد عبد الوارث .
الحسد من المنظور الاسلامى والانبى فى ضوء
العلم الحديث / احمد عبد الوارث مرسى .
- القاهرة : دار المعارف ، (٢٠٠٩) .
١٥٢ ص ١٧١ سم . - (سلسلة اقرأ) .
تكمك : ٤ - ٧٣٦٣ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨ .
١ - الحسد فى القرآن
٢ - الحسد
٣ - العنوان

نوى ٢٢٩،٤١٧٩٨

رقم الإيداع ٢٠٠٩ / ١٦٨١٨ ١ / ٢٠٠٩ / ١٦

تنفيذ المتن والغلاف
بالمركز الالكترونى
دار المعارف

نائب رئيس التحرير
منى خشبة

مدير التحرير
كريمة متولى

مدير فنى
شريفة أبو سيف

تصميم الغلاف
عزيزة مختار

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف : ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس : ٢٥٧٤٤٩٩٩ - E-mail: maaref@idsc.net.eg

د. أحمد عبد الوارث مرسى

الحسد من المنظور الإسلامى والأدبى فى ضوء العلم الحديث



دار المعارف

اقرأ

ان الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها،
لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر
الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون
إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا،
وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من
الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى
وأخصب من الحياة العقلية التى نعيشها.
طه حسين



أحلام شهرزاد - العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، خير من نطق بالضاد، وخير من عبد ربه حتى أتاه اليقين، أما بعد...

فهذا تقديم لكتاب: «الحسد من المنظور الإسلامى والأدبى فى ضوء العلم الحديث». لمؤلفه الأستاذ الدكتور / أحمد عبد الوارث مرسى، الأستاذ المتفرغ بكلية الآداب جامعة سوهاج.

لقد تناول المؤلف قضية مهمة تناقش مرضا اجتماعيا خطيرا يستشرى فى أوصال المجتمعات، منذ بدء الخليقة على الأرض، بل وإنها لقبل ذلك بكثير، فعند استعراضه لتاريخ الحسد بين أنه بدأ فى السماوات فى حسد إبليس لآدم، وبعد ذلك حسد قابيل لهابيل وما توالى بعد ذلك من أشكال الحسد وألوانه وصنوفه فى مواكب التاريخ المتتالية.

ولقد تناول المؤلف هذه القضية من المنظور الإسلامى، فاستحضر النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية التى عالجت هذا الموضوع، وسار على هديها، شارحا، وموضحا، ومبيناً، ما وسعه البيان والشرح والتوضيح، ثم هو بلباقة الأديب الناقد، استطاع أن يربط- بذكاء- بين النصوص الدينية، قرآنية أو أحاديث نبوية،

وبين معالجة الأدب لهذا الأمر. ولقد اختار علما من أعلام العصر العباسي، وأديبا من أدبائه العظام، وهو الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب) ذلك الرجل الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، بعلمه وموسوعيته، فكان ربطا موفقا وفنا يشهد له به كل من يقرأ هذا الكتاب النافع إن شاء الله.

ومما يحمد للمؤلف في هذا العمل، أنه ربط ربطا جيدا بين الماضي والحاضر؛ بين كل الدراسات السابقة عن الحسد وبين العلم الحديث؛ وذلك ببيان أن العين هي الأداة التي يؤثر بها الحسد وأنه يخرج منها شعاع غير مرئي له أثر مدمر على المحسود، هو أقرب الشبه بأشعة الليزر التي يستخدمها الجراح بديلا عن المشروط لإجراء العمليات الجراحية.

ومن العجب أنك ترى في هذا المؤلف وصفا دقيقا وصادقا للحاسد حالة حسده من تخصوص عينيه واصفرار وجهه والإعراض عن المحسود والاستئثار لحديثه وكلامه، وانتفاخ أوداجه إلى آخر ما ذكر.

وانك لترى في هذا المؤلف أيضا كيف كان الحسد سببا رئيسيا لأمراض خطيرة أخرى، وداءات اجتماعية متعددة؛ مثل الكبر والغضب والكذب والعداوة والكراهية إلى غير ذلك.

والمؤلف لم يغفل ذكر العلاج الذي ذكره القرآن الكريم والسنة المطهرة لهذا الداء العضال علاج شاف بإذن الله تعالى.

وأخيرا فإن هذا المؤلف عمل جيد أسأل الله أن يعم نفعه المسلمين
عامة، ومؤلفه جاد، بذل فيه جهدا يحمد له. أسأل الله لي وله وللمسلمين
أجمعين التوفيق والسداد.

والله من وراء القصد وهو مولانا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلی العظیم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أ. د/ سعد خلف عبد الوهاب

أستاذ العقيدة والفلسفة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنات سوهاج جامعة الأزهر

عضو المعهد العالمی للوحدة الإسلامية بماليزيا

مقدمة

دين الله الحنيف الذى بُعث به رسول الله ﷺ كما أخبر بذلك،
الإسلام وهو الدين الذى أخرج الله به الناس من ظلمات الجهالة إلى
نور المعرفة ومن أحوال الشرك والكفر إلى بر الأمان، وحقيقة الإيمان،
وهداية الحيران؛ فكان ضياء ونورا ورحمة وحبورا، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ
مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِإِذْنِ اللَّهِ مَنِ اتَّبَعَ
رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٦) (١).

بُعث الرسول ﷺ بالإسلام فى أمة وُسِمَ عصرها بالجاهلى من الجهالة
وحماقة طباعهم وقلة العلم فى أمور كثيرة ولا نعلم لهم أثراً طيباً إلا
فيما وصلنا من أدب رفيع منهم، وبعض العادات التى فرضتها عليهم
ظروف معيشتهم وإن كانت جل عاداتهم لا ترقى إلى المستوى اللائق
بالآدمية؛ فهم يثدّون البنات، وينتهكون المحرمات، ويشربون الخمر
ويظلمون الضعفاء، ويدوسون بأقدام ثقيلة على المساكين والفقراء واقتتال

(١) سورة المائدة ١٥ - ١٦.

فيما بينهم على أتفه الأسباب وقد تدوم حروبهم عشرات السفين تأكل الأخضر واليابس وتقضى على كل غرس غرسوه أو أمر أبرموه حتى غدا مجتمعهم مقطع الأوصال مما جعل الأمراض الاجتماعية تدب فيه وتهجم بشراسة عليه.

وفى يوم عظيم شأنه، جليل قدره أذن الله للنور بالانبلاج وللكون بالارتجاج لهذا السراج الوهاج الذى أضاء الكون كله بما أمر الله به نبيه أن ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ (١) آيات مبينات من كتاب رب الأرض والسموات تضيء، فتخبرو الشموع الباهتة، وتكسر الآلهة الزائفة وتداس بالأقدام العادات البالية، ويسترد الإنسان كرامته ويستعيد الخير صحته وعافيته.

نزل القرآن ليتناول كل شئون الحياة ويرتب وينظم علاقة الإنسان على أساس متين، فى جميع جوانبها؛ يرتب علاقة الإنسان بربه التى تقوم على عبادة الله وترك ما سوى ذلك. وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان؛ فلقد أودع الله فى الإنسان من النوازع ما لا يعلمها إلا هو، ومن ثم فإن القرآن تناول - فى مواضع متعددة منه - خلق الإنسان وحياته وطباعه وعاداته وأخلاقه؛ تناوله فى كل طور من أطوار حياته منذ أن كان جنيناً

(١) سورة العلق ١ - ٥.

فى بطن أمه ، إلى أن أخرج من هذا المكان - بإذن ربه - وهو لا يعلم شيئاً ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) ، إلى أن رُدَّ إلى أَرذل العمر ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرذلِ الْعُمُرِ لَكِي لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (٧٠) وإن مما اهتم به القرآن - لتنظيم حياة الإنسان وتعديل علاقته بربه ثم علاقته بأخيه الإنسان - المشكلات التى يتعرض لها فى حياته اليومية وفى علاقته بالآخرين ومن ثم فقد نبهه إلى كيفية التعامل مع هذه المشكلات وأوجد له الحلول الصحيحة على أساس من تعاليم هذا الدين العظيم.

كما تناول الإسلام علاج الإنسان من كل ما يتعرض له من أمراض اجتماعية خطيرة قد يكون لها أثرها السئ كالحسد والغل والبغضاء ، فنهى الرسول عن ذلك كله لقوله : «ولا تحاسدوا ولا تباعدوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخواناً» (٣) ، بل واعتبر الرسول الكريم ﷺ الحسد داءً خطيراً فى قوله : «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء» (٤) واهتم القرآن الكريم بهذا الأمر اهتماماً بالغاً لما يسبب الحسد بين الناس من

(١) سورة النحل ٧٨.

(٢) سورة النحل ٧٠.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي - ١٦ / ١١٥ دار الريان للتراث.

(٤) رسائل الجاحظ ٣ / ٤.

عداوة وقطع الأواصر بينهم، فذكر الحسد بصيغ متعددة؛ ذكره بصيغة اسم الفاعل (فاعل الحسد نفسه) ثم بصيغة الفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (١)، وهو هنا يطلب من الرسول ومنا أن يستعيذ بالله من شر الحاسد، وهذه إشارة واضحة وعلامة بارزة إلى أن الحاسد شر مستطير وإنسان خطير على المجتمع المسلم الذي يقوم على أساس من المحبة والألفة والسلام.

وذكر الله - سبحانه - الحسد بصيغة الفعل المضارع على طريقة الأفعال الخمسة مرفوعاً بثبوت النون في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢)، وأيضاً في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (٣). وقد نزلت - كما سيأتى - فى شأن اليهود الذين حسدوا النبى ﷺ على النبوة، ولذا فإن الله - جلّت قدرته - عقب ذلك بقوله: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (٤). واليهود من آل إبراهيم من سلالة إسحاق - عليه السلام - فكانه يقول لهم: فكما أعطيناكم ملكاً ونبوة ممثلاً ذلك فى الأنبياء من سلالة إسحاق

(١) سورة الفلق ٥.

(٢) سورة الفتح ١٥.

(٣) سورة النساء ٥٤.

(٤) سورة النساء ٥٤.

عَلَيْهِ السَّلَامُ أعطينا الناس نبوة وملكاً ممثلاً في شخص محمد ﷺ. فهو السراج الوهاج الذي هدى الله به البشرية وأنقذها مما كانت ترزح تحته من وطأة الظلم وقسوة البطش.

وإذا نظرنا إلى الآيتين السابقتين نجد أن الأولى (تحسدون) بصيغة المخاطب والثانية (يحسدون) بصيغة الغائب لغلبة هذا الداء الخطير وسطوته وسلطانه على من أصيبوا به، وهذه إشارة واضحة إلى أن الحسد مرض اجتماعي متواجد بين أفراد المجتمع فالمضارع يدل على وقوع الحدث واستمراره، وأن الحاسد لا يتمنى زوال المال أو الجاه أو البنين أو العلم فحسب الذي عند المحسود بل إنه ليشمل كل ذلك وما هو أخطر من ذلك كله وهو الكفر - نعوذ بالله منه.

وهذا ما ورد - أيضاً - من الحسد في القرآن الكريم ولكن على صيغة المصدر في قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٠٩﴾ (١). والمصدر - في اللغة - هو الفعل أو العمل مجرداً من الزمن، وهذه إشارة واضحة إلى أن الحسد كامن في نفس صاحبه كمون النار في الحجر ليس له زمن يعينه يتوجه

(١) سورة البقرة ١٠٩.

فيه إلى المحسود، بل هو في كل وقت وحين وفي كل زمان ومكان يرمى بسهامه الفتاكة.

وأما أحاديث الرسول الكريم في هذا الشأن فهي كثيرة منها ما يحذر من الحاسد وشره ومنها ما يصف الدواء لهذا الداء الفتاك ومنها ما يوجه الحاسد إلى الإقلاع والابتعاد عما هو فيه.

ولقد أثار الحاسد عندي تساؤلات عدة كانت هي المحرك الوحيد لي لأقوم بهذا العمل الذي أرجو أن ينال القبول من الله أولاً وآخراً وهي.. ما سبب هذا البغض الدفين الذي يكنه الحاسد لمحسوده دون أن يناله منه أذى يكرهه؟ ثم - ما الفائدة التي تعود على هذا الحاسد الأحمق مما يدسه من سموم في جوفه لمحسوده؟ ثم - ماذا يضيره لو أن الناس جميعاً عاشت في سعة من العيش وبسط في الرزق وهو واحد منهم وسيشمله - بالتأكيد هذا الخير العميم؟.. ثم - ألم يدر بخلده أنه سيعرض - لا محالة - على رب العالمين وأحكام الحاكمين وسوف يحاسب على النقيير والقطمير والعظيم والحقير من أعماله وسوف يجازى على ما أسرف على نفسه وفرط في جنب الله؟؟

إنها أسئلة ألحّت على كثيراً فأردت أن أقوم بعمل أنبه به ذلك الحاسد أن يكف عن حسده وأن يرعوى عن غيه، ثم أنبه المحسود وأقوده إلى العلاج من هذا الداء الخطير من كتاب ربنا جل شأنه ومن سنة نبينا محمد ﷺ علني وإياه أن نسلم من شرور الحاسدين وأن ننال رضا رب العالمين.

وبحثت عن الوسيلة التي أعرض بها هذا الأمر الخطير وأشرح من خلالها ما جاء من أمر الحسد في الكتاب والسنة تعريفاً وتحليلاً وأعرف من خلاله تاريخ هذا الحسد وهل هو وليد العصر الذي سبق الإسلام - كما قدمت - أو أنه أسبق من ذلك، وهل داء الحسد خاص بأمة بعينها أو بزمان بعينه؟ أخذت أقلب أمري وأجتهد قدر طاقتي حتى وقعت على ضالتي وهي (الأدب) وما أدراك ما الأدب. ذلك الديوان العظيم والسجل القويم؛ إنه لسان حال الأمم والمتحدث عنها والمتألم لآلامها والمحقق لأحلامها، هو الذي يرفع بناءها ويبرز عطاءها إنه خلاصة تجارب الأمم وعلاج مشاكلها.

ولا يكون للأدب هذا الدور العظيم في حياتنا وخاصة في الحلول العاجلة لمشاكلنا ووضع الدواء النافع لكل أمراضنا الاجتماعية وغيرها إلا إذا كان على أساس ديني وعقيدة صحيحة أساسها طاعة الله وحده لا على أساس من فكر سقيم على طريقة الطبيعيين أو البهائيين أو القاديانيين أو كل أصحاب الملل المنحرفة المعوجة ممن ضلوا طريق صحيح السنة المطهرة. إنها طريقة القرآن وسبيل الإيمان. إنها طريقة (لا إله إلا الله) لا معبود بحق سواه ولا أحد يشركه في حكمه وملكه، فالملك والملكوت لله، والقرآن هو الكتاب السماوي والدستور الإلهي الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (١)

(١) سورة فصلت ٤٢.

وقديماً منذ أن كنت طالباً جامعياً بُهرت بأدب الجاحظ وفكره وقد قرأت - تقريباً - كل كتبه وأعجبني علاجه للقضايا التي يتناولها بالدراسة والتحليل وخاصة في تناوله لداء الحسد في مصنفاته والتي جمعت - فيما بعد - ضمن رسائل الجاحظ؛ فهو رجل موسوعي لا يشق له غبار في هذا المجال.

فهو يعرف الحسد كما جاء في أحاديث رسول الله ﷺ ويستشهد بعد ذلك بكلام العرب وأشعارهم ومجالسهم، ويبين آثاره ومثالبه من القرآن الكريم. ثم يبين أنواعه كما جاء في الصحاح فيقول إن منه المذموم والمحمود ويبين كل نوع من هذه الأنواع ثم هو لا يبتعد أبداً عما ورد من نصوص دينية سواء من الكتاب أم السنة وهو - بروح العالم الجليل - يربط بين هذه النصوص وبين موسوعيته وما قرأه وما عرفه وما قُصَّ عليه من تجارب الآخرين.

ثم يبين حقيقة الحسد ويفسر قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾^(١)... الخ وبعد ذلك يتحدث عن الحسد والعين.

ويعرض الجاحظ لتاريخ الحسد فيبين أنه موجود قبل أن يوجد الإنسان ويعرض لحسد إبليس وابنى آدم إلى آخره مما سوف يأتي بإذن الله تعالى. ثم يبين أسباب الحسد فيعرض لأنواع مختلفة من الناس

(١) سورة القلم ٥١.

وطبقات مجتمعية يدب بينها هذا الداء الخطير. وأخيراً علاج الحسد كما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ولكن ما الذى جعل الجاحظ يهتم هذا الاهتمام بهذا الداء الخطير. لقد عاش الجاحظ (١٥٩ - ٢٥٥هـ) في عصر الدولة العباسية - وكانت ظروف الحياة حوله تختلف عن كل الظروف السابقة، وكان أدبه يختلف عن أدب سابقيه؛ إذ استطاع أن يجعل الأدب في خدمة الحياة بعد أن كان - كما يقول عنه الأستاذ أحمد أمين^(١) - (كاد يكون شكلاً بحتاً) لكن الجاحظ استحدث به موضوعات جديدة علاجاً لبعض المشاكل الاجتماعية، وإبرازاً لمثالب المجتمع اليومية.

لقد امتدت أطراف الدولة العباسية امتداداً شاسعاً لم تعهده الدولة العربية من قبل فوصلت غرباً إلى المغرب فمصر والشام وجزيرة العرب والعراق وفارس وما وراء النهر شرقاً، وتداخلت العناصر البشرية في بعضها فشملت عرباً وفرنساً وبربراً وهنوداً وأتراكا بعد ذلك، وبذا أصبحت الحياة كثيرة المطالب، متعددة الوجوه، ولم تعد البساطة سمة الحياة كما كانت من قبل ولكن المال أصبح كل شيء، وجعل الناس يتكالبون عليه، ويجمعونه بطرق شتى لا يتورعون في جمعه، وذلك لنشوء طبقة التجار الأثرياء في البصرة وبغداد، وهي الطبقة التي تقابل

(١) في كتابه: ضحى الإسلام ٣ / ١٢٨، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

الطبقة البورجوازية فى الغرب وكانت تلك الطبقة فى البصرة أعظم؛ إذ كانت ثغر العراق، والمركز التجارى الخطر الذى يصل الشرق بالغرب، والذى يستقبل متاجر الهند وجزر البحار الشرقية، ومن أجل ذلك كانت تسمى أرض الهند كما ينص على ذلك المسعودى فى مروج الذهب^(١).
وأما اقتصاديات البلاد عامة، فقد كانت واسعة جداً، وأموال الدولة فى عهد الخلافة العباسية طائلة جداً ومثلت ثروة طائلة فى يد الخلفاء وخزانة الدولة إلى عهد المعتصم؛ إذ أصبحت هذه الثروة فى يد الأجناد الغرباء.
وكان لاهتمام الدولة - أيضاً - بالزراعة له أكبر الأثر فى زيادة الثروة فشقت القنوات، وعززت بعض الصناعات كصناعة النسيج، واستخرجت المعادن من مناجم فارس، وكان لكل هذه الأموال فى أيدى الناس من شأنها أن تجعلهم يعيشون فى ترف ولهو وتفنن فى المأكول والملبس والمشراب، كما أنها خليقة أن تجعلهم يختلفون إلى مراكز الغناء واللهو والطرب.
كل هذه الأمور جعلت طبقة الفقراء والمعدمين يتطلعون إلى حياة المترفين المنعمين، فإذا لم ينالوا منها شيئاً دسوا لهم داء الحسد الذى يكمن فى قلوبهم. ومن هنا كان هذا المرض ظاهرة ذلك العصر، فكان جديراً أن ينال اهتمام رجل أديب عظيم فى حجم الجاحظ. وذلك هو حسد النعمة على ما سنبينه فيما بعد.

(١) البخلاء للجاحظ، مقدمة الأستاذ الدكتور/ طه الحاجرى ص ٣٦، ط. سادسة،

والعلم نعمة من نعم الله على الإنسان، وإليه تتجه العيون وتتوق النفوس، وكان مما جعل الأنظار تتجه إلى العلماء أنهم أصبحوا مقربين من خلفاء بنى العباس يجالسونهم ويغدقون عليهم العطاء، وانتظر خلفاء بنى العباس المدح والثناء، ومن ثم فإنهم قربوا الشعراء والأدباء، وولوهم- أحيانا- المناصب العالية في الدولة. ولم يكن هذا شأن الخلفاء فحسب، ولكن الأمراء سلكوا نفس المسلك مع العلماء، وكانوا يتنافسون في ذلك تنافسا شديداً ليستمعوا إلى مآثرهم ويستمتعوا بالثناء عليهم فيما يقال عن هؤلاء من شعر يبث الشاعر فيه مآثرهم، وتآليف في شتى ألوان العلوم والفنون تُهدى إلى هؤلاء لتكون سببا في ثراء الأدباء وشهرتهم، وربما لتوليهم مناصب رفيعة في الدولة؛ فهذا هو المأمون يعجب بكتاب الإمامة للجاحظ فيستدعيه ويطلب منه أن يكتب له رسالة في العباسية والاحتجاج لها، ولما رأى مقدرة الجاحظ الفائقة على الكتابة وسعة ثقافته، أسند إليه ديوان الرسائل؛ وهو من أهم ما يدور عليه محور السياسة العامة للدولة وإن كان الجاحظ لم يمكث فيه سوى ثلاثة أيام^(١)، إلا أن كتابته وثقافته كانت سبب شهرته. وكتب الجاحظ- أيضا- لمحمد بن عبد الملك المعروف بابن الزيات وزير المعتصم، ثم الواثق وكان من أكابر رجال الأدب والسياسة، فمدحه الجاحظ، وأهداه كتاب

(١) معجم الأدباء لياقوت ١٦ / ٧٨ - ٧٩.

(الحيوان) فأعطاه الوزير خمسة آلاف دينار. كما أهدى الجاحظ كتاب البيان والتبيين لابن أبي ذؤاد فأعطاه فيه خمسة آلاف دينار أيضا. وأهدى الفتح بن خاقان وزير المتوكل بعضا من كتبه منها كتاب «مناقب الترك وعامة جند الخلافة».

الكتابة- إذن- مصدر من مصادر الرزق والعطاء السدى يُغدق على الكتّاب الخير الكثير، ثم هي سبب من أسباب الشهرة والارتقاء والتقرب من الخلفاء والأمراء والوزراء، ومن ثم فهي سبب من الأسباب الذي يتحسد عليه الناس، وقد قامت رسالة الجاحظ الأولى عن الحسد (فصل ما بين العداوة والحسد) على هذا النوع منه.

هذه هي الدواعي الحقيقية التي جعلت مرضا كالحسد يستشري في أوصال الدولة آنئذ ليكون ظاهرة اجتماعية خطيرة، ومرض من أمراض العصر وإن لم تخل منه كل العصور، ومن هنا كان اختياري لأدب الجاحظ لموسوعية صاحبه، وكذلك للفترة الزمنية التي عاشها الجاحظ، ثم هو- بعد ذلك ينطلى أي الحسد- على كل زمان وأوان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

د. أحمد عبد الوارث مرسى

تعريف الحسد

الحسد هو رغبة الحاسد في أن تتحول إليه نعمة الآخرين وفضيلته أو يُسلبها هو؛ فهو تمنى زوال نعمة من مستحق لها وربما كان مع ذلك يسعى في إزالتها.

ومضارعه مضموم العين، أو مكسورها فيقال: حَسَدَ يحسُدُ (بضم السين) ويحسِدُ (بكسرهما)، والمصدر حسداً (بالتحريك) وحسادة. ويوصف الواحد فيقال: حاسد وحسود، وأما الأنثى فمن غير تاء، ويقال في الجمع قوم حُسَد وحسَاد وحَسَدَة، وفعله يأتي متعدياً ولازماً فيقال حسده على الشيء وحسده إياه، قال الشاعر^(١):

أَتَوْنَارِي فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتُمْ فَقَالُوا: الْجَنُّ قُلْتُ عَمُوا ظِلَامَا
فَقُلْتُ إِلَى الطَّعَامِ فَقَالَ مِنْهُمْ زَعِيمٌ نَحْسِدُ الْإِنْسَ الطَّعَامَا
والحسد، بمعنى القشر؛ ولذا فإن الحسد ربما كان مأخوذاً من (الحسدل) الذي هو القراد، ووجه الارتباط بين المعنيين؛ أن القراد يقشر الجلد ويمتص الدم، والحسد يقشر القلب ويمتص إيمانه. وهذا المعنى

(١) الشعر كما نقل ابن منظور عن ابن بري - لشمر بن الحارث الضبي، وربما روى لتأبط شراً. انظر لسان العرب: مادة (ح س د).

مجازى. أو ربما كان المعنى المرتبط بلفظي الحسد والحسد هو الالتصاق والملازمة، فكما أن القسراد يلتصق بالجلد ويلازمه ولا يتركه، فكذلك الحسد يلتصق بالقلب ولا يترك صاحبه إلى أن يأتي الموت على رمته^(١).

وقد بين الإمام الغزالي - رحمه الله - حقيقة الحسد فقال: أما الحسد، فهو متشعب من الشح؛ فإن البخيل هو الذى يبخل بما فى يده على غيره، والشحيح: هو الذى يبخل بنعمة الله - وهى فى خزائن قدرته لا فى خزائنه - على عباد الله تعالى فشحه أعظم. والحسود: هو الذى يشق عليه إنعام الله - تعالى - من فضله على عبد من عباده بعلم أو مال أو محبة فى قلوب الناس، أو حظ من الحظوظ، حتى إنه ليحب زوالها عنه وإن لم يحصل له من ذلك مصلحة، وهذا منتهى الخبث، فلذلك قال النبى - ﷺ - «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»^(٢).

وقد عرف الجاحظ الحسد بما عرفه رسول الله - ﷺ - أنه داء فقال عنه: (والحسد - أبقاك الله - داء ينهك الجسم ويفسد الود، علاجه عسر وصاحبه ضجر، وهو باب غامض وأمر متعذر، وما ظهر

(١) راجع فى تعريف الحسد:

(أ) لسان العرب لابن منظور مادة (حسد).

(ب) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهاني.

(٢) رواد أبو داود من حديث أنس وانظر إحياء علوم الدين للغزالي وتخريج الحافظ

العراقي ٢٠١ / ٣.

منه فلا يداوى، وما بطن منه فمداويه في عناء....^(١) ثم استشهد على ذلك بقول الرسول - ﷺ -: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ»^(٢) فَعَدَّ الْجَا حِظَّ الْحَسَدِ مَرَضاً يَنْهَكَ قُوَّةَ الْبَدَنِ، كَمَا أَنَّهُ يَفْسِدُ الْوُدَّ وَيَفْكَكُ الرُّوَابِطَ بَيْنَ النَّاسِ وَهُوَ لَا يَجِدُ عِلَاجاً لَهُ، إِذَا يَعْتَبِرُهُ أَمِراً مِنَ الْأُمُورِ الْغَامِضَةِ، أَيْ إِنَّهُ لَمْ يَقْلَحْ فِي تَشْخِصِهِ، أَوْ رُبَّمَا فِي السِّرِّ الَّذِي بِهِ يَضُرُّ.

والجاحظ يجعل للحسد طريقين؛ طريقاً غامضاً غير معروف، ومن ثم فإن علاجه بعيد صعب، وطريقاً واضحاً يستحيل علاجه. أو ربما أراد الجاحظ بالطريقين الحسد الذي يظهره صاحبه أو الحسد الذي يكمن في القلب كمون النار في الحجر كما سيأتي.

ثم يبين حقيقة الحسد بأكثر مما سبق فيقول: (والحسد عقيد الكفر وحليف الباطل، وضد الحق وحرب البيان)^(٣). وبذلك يربط بين الحسد والكفر فيبين أنهما متلازمان، وبين الحسد والباطل فيبين أنهما متحالفان، وهاتان صفتان من أسوأ الصفات، ومن أَرْدَأَ الْخِلَالِ الَّتِي حَالَفَهَا الْحَسَدُ.

(١) رسائل الجاحظ (رسالة الحاسد والمحسود) ٣ / ٣ تحقيق عبد السلام هارون ط. أولى الخانجي ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والترمذي عن الزبير بن العوام.

(٣) الحاسد والمحسود ضمن رسائل الجاحظ ٣ / ٤.

وأما مساوئيه الأخرى فإنه ضد الحق، وحرب على البيان الذى امتن الله به على الإنسان فقال: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾^(١). وهكذا نجد الجاحظ يجنح إلى البيان فى هذه الاستعارات التشخيصية التى تحيل المعنوى إلى المحسوس فتتضح الفكرة وتكتمل الصورة التى رسمها للحسد بأنه ضد كل معانى الخير، وبأنه حليف وقرين لكل معانى الشر فى المجتمع. والعبارات الأربع السابقة، عبارات قصيرة معبرة ليس فيها تكلف ولا تصنع، وقد استخدم الجاحظ اللفظ استخداماً بارعاً فنياً حاذقاً؛ فنرى الترادف بين عقيد وحليف، كما رادف بين الحسد والكفر ليُعلم أنه هو، ونرى التضاد بين الحق والباطل لتتضح الفكرة التى يريد إبرازها، كما يلحظ أنها عبارات جاءت خالية من السجع أو أى زخارف لفظية، ليكون اهتمام القارئ منصباً على الفكرة ذاتها.

ونُحَسِّن- ونحن نقرأ العبارات- بموسيقى عذبة هادئة أوجدها قِصْر الجُمْل وترتيب الألفاظ، فكل جملة جاءت من كلمتين متساويتين تقريباً فى عدد الحروف مما أوجد هذا الجرس الموسيقى العذب، وهو ما يبعد السأم والملل فى نفس القارئ، ويجعله أكثر تفهماً للمعانى.

(١) سورة الرحمن ١- ٤.

أنواع الحسد

(أ) الحسد المحمود :

والحسد وإن كان بهذه الصورة البشعة التي صُورت له - فإن ذلك ليس على إطلاقه وإنما يجب أن يُعرف أن منه المحمود، ومنه البغيض إلى النفس المذموم؛ وفي الصحيحين من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي - ﷺ - أنه قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله - عز وجل - القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا، فهو ينفقه في الحق آناء الليل وآناء النهار»^(١) وهذا هو الحسد المحمود لأنه رغبة في فعل الخير، فلا يوجد خير أعظم من تلاوة القرآن؛ كلام الله والتعبد به في الليل والنهار، ولا يوجد أعظم من وجود المال وإنفاقه في سبيل الله وعمل الخير في الليل والنهار. وقد تعرض الجاحظ في آخر رسالته (فصل ما بين العداوة والحسد)^(٢) للحديث السابق، وقدم له بقوله: ولانعلم الحسد جاء فيه شيء أكثر

(١) أخرجه الشيخان والترمذي، انظر صحيح البخاري ١٠٤ / ٩ طبع دار الشعب.

(٢) ضمن رسائل الجاحظ ١ / ٣٣٧.

من حديث روى عن النبي - ﷺ - «لا حسد إلا في اثنتين» وذكر الحديث، وهو مروي عن الشيخين، وما عداه من الأحاديث في هذا الشأن ففيها أقوال، فكأن الجاحظ يريد أن يقول: لا نعلم الحسد جاء فيه شيء صحيح غيره، ثم عقب على الحديث بقوله: فهذا الحسد، إنما هو في طاعة الله عز وجل، وطاعة رسوله - ﷺ - ثم قال: وقال بعض الأشراف:

احسد على نبل المكارم والعلی إذ لم تكن في حالة المحسود
حسدُ الفتى بالمكرمات لغيره كرمٌ ولكن ليس بالمعدود
ففي هذين البيتين دعوة إلى الحسد، ولكن الحسد المحمود الذي أجمله الرسول الكريم - ﷺ - في حديثه المتقدم، وقد وضحه الجاحظ بالبيتين، وعد الحسد على نيل المكارم والعلا حسداً محموداً لأنه من مكارم الأخلاق.

(ب) الحسد المذموم:

وأما الحسد المذموم، وهو تمنى زوال نعمة الغير ولو لم يعد إليه منه شيء، فهو النوع من الحسد الذي ركز الجاحظ عليه وأفرغ فكره في قلبه، وأورد الأمثلة الكثيرة عليه في أدبه.

وقد جعل هذا النوع من الحسد على درجات؛ فمنه حسد العالم، وحسد الجاهل، والحسد بين الأقارب، وحسد الجيران، وحسد الخلان، وكل هذه الدرجات لها أسباب توجبها، وقد جاء في كتاب مفتاح السعادة

ومصباح السيادة^(١): ولما كان الحسد اقتضى سابقة الارتباط بين الشخصين،
كثير بين الأمثال والأقران، والإخوة وبنى العم والأقارب دون شخصين في
بلدتين متباعدتين. ثم لما اشترط في الحسد التزام، حسد العالم العالم
دون التاجر، والشجاع الشجاع دون الإسكاف ونحو ذلك^(٢).
وقد عُدَّ الجاحظ حسد العالم أشدَّ خطراً وأكثر ضرراً من حسد الجاهل
فقال: وحسد الجاهل أهون شوكة وأذل مَحِناً من حسد العارف الفطن
ومثَّل على ذلك: بتحاسد المؤلفين، وأنه كان يقوم بتأليف الجيد من
الأعمال ويريد أن ينكبَّ الناس على قراءته فينسب به إلى غيره؛ لأن
الحساد لا يستحسنون له عملاً مهما بلغت درجة تفوقه في ذلك العلم،
وهم ينقسمون إلى عالم خبير، وحاذق ماهر فيه، وإلى جاهل في فهم
ما يقرأ فيقول: لأن الحاسد الجاهل يبتدر إلى الطعن على الكتاب في
أول وهلة يقرأ عليه، من قبل استتمام قراءة ورقة واحدة، ثم لا يرضى
بأسر الطعن وأخفه حتى يبلغ منه إلى أشده وأغلظه من قبل أن يقف
على فصوله وحدوده. وليس ثلثه مفسراً مفصلاً، ولكنه يجمل ذلك
ويقول: هذا خطأ من أوله إلى آخره وباطل من ابتدائه إلى انقضائه^(٣).

(١) لطاش كبرى زادة ٣ / ٣٩٦ - ٣٧٣. وانظر الموسوعة الذهبية د. فاطمة محجوب

١٣ / ٦٣٣.

(٢) نقلاً عن الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية ١٣ / ٦٢٦.

(٣) فصل ما بين العداوة والحسد ضمن رسائل الجاحظ ١ / ٣٥١ - ٣٥٢.

فالحاسد الجاهل- فى نظر الجاحظ كل همه الحسد دون روية أو تفكير، ولذا فإن منطق سقيم ورأيه ضعيف، لا يستند إلى حقائق علمية وأصول نقدية، فيكشفه نقده هذا بأنه حاسد، ومن ثم فإن اللبق يفهم ويدرك توجيه هذا النقد.

استدلال منطقي وكشف لستر الحاسد، ووصف له بأنه غبى جاهل ليس له هم إلا الحسد والتشفي من محسوده، وهذا الصنف من الحاسدين لا يخشى منهم ولا يحسب لهم حساب.

أما الحاسد العالم، فإن له عقلاً يزن به الأمور، ويضعها فى نصابها؛ فهو يقرأ العمل جيداً ويبحث عن مثالبه الحقيقية، ويجتهد بقدر ما وسعه الاجتهاد لكشف حقيقة المحسود وفضحه وجعله هدفاً للجميع، وقد قال عنه الجاحظ: «والحاسد العازف الذى فيه تقية ومعه مُسكة»^(١)، وبه طعم^(٢)» أو حياة إذا أراد أن يغتال الكتاب ويحتال فى إسقاطه، تصفح أوراقه، ووقف على حدوده ومفاصله، وردد فيه بصره وراجع فكره، وأظهر عند السيد الذى هو بحضرته وجلسائه، من التثبت والتأنى جبالة يقتنص بها قلوبهم، وسبباً يسترعى به ألبابهم، وسلمماً يرتقى به إلى مراده منهم، وبساطاً يفرش عليه مصارع الخدع،

(١) المسكة: العقل الراجح، والرأى. عن المعجم الوسيط مادة (مسك).

(٢) الطعم: العقل.

فيوهم به القصد إلى الحق والاجتباء له. فربما استترعى بهذه المخاتل
والخُدَع قلب السيد الحازم»^(١).

يلحظ في بيان حقيقة الحاسد العارف أن الجاحظ لجأ إلى المجاز في
معظم ما قال عنه؛ فلشدة حرصه على نقض الكتاب وكشف ما به من
مثالب جعل الكتاب كأنه إنسان ويُغتال، والاغتيال يحدث على غِرة
دون جرم أو جريرة، والمغتال ليس له وجود في الحياة بعد اغتياله
وهذه استعارة توضيحية لأنها كشفت حقيقة ما يصبو إليه الجاسد.

ولبيان مدى دقة الحاسد، وإمعانه في بيان ما بالكتاب من أخطاء
وكشف ما به من عيوب جعله كأنه مكان فسيح متسع له حدود وفواصل،
وقد جاب الحاسد كل شبر فيه حتى وقف على حدوده. وهو يستخدم
حواسه وجوارحه في ذلك؛ فقد ردد عينه مرات ومرات، وراجع
الفكر فيما ينوي قوله، ثم جعل أدوات نقض العمل كأنها حبال، وهذه
الحبال لا تصطاد ولا تقتنص أشياء مادية، ولكنها تقتنص العواطف.
والعواطف كأنها طيور تصطاد ويراد بها- في هذا الموضع- العاطفة
بالإعجاب على هذا العمل، ثم يصور عقول الحاضرين كأنها غنم وهو
يرعاها، ويسيرها كيف يشاء بحجته وأدلتة وبراهينه، ثم يصور ذلك
كله سلماً يرتقى به إلى غرضه الأساسي، ويصل به إلى مقصوده الحقيقي

(١) رسائل الجاحظ: (فصل ما بين العداوة والحسد) ١ / ٣٥١ - ٣٥٢.

الذى هو ذم المحسود وإظهار عيوبه، ويصور خدع المحسود كأنها آدميون صرعى على بساط حجته.

لقد لجأ الجاحظ إلى هذه البلاغة، والتصوير الدقيق للحاسد، لبيان حقيقة وكشف طويته فكان دقيقاً كل الدقة بليغاً لبقاً، وقد وضع الكلمات فى مواضعها الصحيحة، وصاغ منها القوالب التى صب فيها معانيه، واستخدم المجاز فى موضعه الصحيح، فلم نر صورة فى غير ما وضعت له، ولم يستخدم البديع الذى ربما أحدث جرساً موسيقياً ألهى عن فهم المعانى إلا فى أضيق الحدود وأقل المواضع.



حَقِيقَةُ الْحَسَدِ

والحسد أنانية وخِسة ودناءة، فلا تحب نفس الحاسد أن يعلو عليها أحد، كما تحب أن تحوز الفضائل بأجمعها، والرياسة جلها والأموال لا تترك منها شيئاً لغيرها، وهى أمور جبلت عليها النفس وطبعت لا تستطيع أن تنفك عنها. يقول ابن قدامة المقدسى: «اعلم أن النفس قد جبلت على حب الرفعة، فهى لا تحب أن يعلوها جنسها، فإذا علا عليها شق عليها وكرهته، وأحبت زوال ذلك ليقع التساوى، وهذا أمر مركوز فى الطباع؛ وقد روى أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النبى - صلّى الله عليه وآله - أنه قال: «ثلاث لا ينجو منهن أحد الظن والطيرة والحسد، وسأحدثكم ما المخرج من ذلك، إذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض، وإذا حسدت فلا تبغ»^(١).

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (٥١). يذكر القرطبى أن قوله (ليزلقونك) أى يعتانونك، يعنى يصيبون النبى بالعين.

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ١٨٦، قدم له الاستاذ محمد أحمد دهمان، وعلق عليه شعيب الأرناؤط وعبد القادر الأرناؤط مكتبة دار التراث.

(٢) سورة القلم، الآية ٥١.

وكانت العين فى بنى أسد، حتى إن البقرة السمينه أو الناقة السمينه تمر بأحدهم فيعاينها ثم يقول: يا جارية خذى المقتل والدرهم فأتنا بلحم هذه الناقة، فما تبرح حتى تقع للموت فتُنحر.

وفى سبب نزول الآية: ذكر القرطبي أن رجلاً من العرب كان يمكث لا يأكل شيئاً يومين أو ثلاثة، ثم يرفع جانب الخباء فتمر به الإبل أو الغنم فيقول: لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه، فما تذهب إلا قليلاً حتى تسقط طائفة هالكة. فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب لهم النبى - ﷺ - بالعين فأجابهم، فلما مر النبى - ﷺ - أنشد:

قد كان قومك يحسبونك سيداً وأخال أنك سيد معيون
فعصم الله نبيه - ﷺ - ونزلت: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ﴾ (١).
نستنتج من كل ما تقدم أن الحسد حقيقة مؤكدة، وأمر واقع، ومرض مركوز فى قلوب الحاسدين، وهو غيرة شديدة كامنة فى النفس وجذوة مشتعلة وأثرة بجلب المنفعة أو إنتفائها من المحسود.

وقد وضع الجاحظ ذلك بقوله: «وانى ربما ألقت الكتاب المحكم فى الدين والفقه، والرسائل والسيرة، والخطب والخراج والأحكام، وسائر فنون الحكمة، وأنسبه إلى نفسى فيتواطأ على جماعة من أهل العلم

(١) راجع تفسير القرطبي المجلد العاشر ص ٦٧٣٣ - ٦٧٣٤.

بالحسد المركب فيهم، وهم يعرفون براعته ونصاعته. وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفاً لملك معه المقدرة على التقديم والتأخير، والخط والرفع، والترغيب والترهيب، فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة، فإن أمكنتهم حيلة في إسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذى أُلِّفَ له، فهو الذى قصدوه وأرادوه، وإن كان السيد المؤلف فيه الكتاب تحريراً^(١) نقاباً، ونقريساً^(٢) بليغاً وحاذقاً فطنا وأعجزتهم الحيلة، سرقوا معانى ذلك الكتاب وألّفوا من أعراضه وحواشيه كتاباً، وأهدوه إلى ملك آخر، وامتوا إليه به، وهم قد ذمّوه وثلبّوه لما رأوه منسوباً إلى وموسوماً بى^(٣).

وهكذا يضيف الجاحظ من الصفات الرديئة إلى الحساد- علاوة على حسدهم- الأنانية والسرقة والسطو على أعمال الآخرين، ثم إنه يصورهم بصور تناسب مرضهم الذى منه يعانون إذ يشبههم بالإبل المغتلمة فى الاهتياج، ولا يخفى على أحد ما تكون عليه هذه الإبل- والحالة هذه- من الوحشية وإيقاع الأذى على الآخرين.

واستخدم الجاحظ التضاد استخداماً جيداً ليبرز به المعنى ويوضحه وذلك بين التقديم والتأخير، والخط والرفع، والترغيب والترهيب.

(١) التحرير: العالم الحاذق فى علمه (الوسيط ٢ / ٩٤٣).

(٢) النقريس: الطبيب الماهر، والدليل الحاذق (الوسيط ٢ / ٩٤٣).

(٣) رسائل الجاحظ ١ / ٣٥٠.

الحسد- إذن- أو العين حق؛ ثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة على ذلك، فأما بالكتاب؛ فما ورد بشأنه في القرآن الكريم من آيات متعددة. وأما في السنة فبالأحاديث المتعددة؛ خاصة ما رواه مسلم عن النبي - ﷺ - قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين»^(١). وكان أبو سعيد - رضي الله عنه - يقول: إن النبي - ﷺ - كان يتعوز من الجان وعين الإنسان. وروى الترمذي - رضي الله عنه - عن أسماء بنت عميس أنها قالت: يا رسول الله إن بني جعفر تصيبهم العين أفأسترقى لهم؟ قال: «نعم. ولو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين»^(٢).

قال ابن القيم: «أبطلت طائفة ممن قل نصيبهم من السمع والعقل أمر العين، وقالوا: إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها. وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل، ومن أغلظهم حجاباً، وأكثرهم طباعاً، وأبعدهم معرفة عن الأرواح والنفوس وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها»^(٣).
وكان ابن القيم ينكر على منكري الحسد معتقدهم ويصفهم بأنهم لا يسمعون ولا يعقلون لأن حجباً كثيفة قد حالت بينهم وبين إدراك حقيقة الحسد والحاسدين.

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٤/١٧، طبع الريان. ط. أول ١٤٠٧هـ

١٩٨٧م.

(٢) أخرجه الترمذي في ٢٩ كتاب الطب (١٧) باب ما جاء في الرقية من العين

ع/ ٣٩٥ وقال عنه حديث حسن صحيح، دار الحديث- القاهرة.

(٣) زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم ٣/ ١١٦ المطبعة المصرية ومكتبتها.

ولكن العقلاء فقط - عند ابن القيم وعند غيره - هم الذين يدركون حقيقة، فيقول: «وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا تدفع أمر العين ولا تنكره وإن اختلفوا في سببه ووجهة تأثير العين».

ولقد كشف لنا الجاحظ حقيقة الحسد والحاسدين في أدبه؛ فبين أن الحاسدين يتصفون بكل صفات الخسة والدناءة؛ فالكذب طبيعتهم، والنفاق سجيتهم، والعداوة والبغض ديدنهم، وكل مساوئ الأخلاق لباسهم. وقد ساق على ذلك الأدلة القاطعة والحجج الدامغة والبراهين الواضحة، كما أورد القصص الكثيرة، والأمثلة الوفيرة، والأشعار الغزيرة. كل ذلك في أسلوب سهل، وألفاظ واضحة، وعبارات عذبة.

فالنفاق الذي بين الجاحظ أنه من أخس صفاتهم يتضح فيما أورده عن جماعة حسدوه لكتاب ألفه، ورموه بسهام حقدهم على هذا المؤلف، على رغم جودته وبراعته لكنهم أنكروا فعلتهم الدنيئة عندما كانوا شهوده، وقد بين ذلك من خلال ما كتبه إلى من ألف له ذلك الكتاب بقوله: «فلما بلغت هذا الفصل من تأليف هذا الكتاب دخل على عشرة نفر من الكتاب قد شملهم معروفك، ورفع مراتبهم جميل نظرك، فهم من طاعتك والمحبة لك على حسب ما أوليتهم من إحسانك وجزيل فوائذك، فأفاضوا في حديث من أحاديث الحسد فشعب لهم ذلك الحديث شعوباً افتنوا فيها - والحديث ذو شجون - فما برحوا حتى أتتني رقعة

أناسيَّة^(١) من الحساد فيها سهام الوعيد، ومقدمات التهديد والتحذير والتخويف؛ للطعن على ما ألفت من الكتب إن أنا لم أضمن لهم الشركة فيما يجرى علىّ، فدفعت رقعتهم إلى من قرب إلى منهم، فقرأها ثم قال: «أبظلم يرومون النيل ويلتمسون الشركة في المعروف؟ لنزع الروح بالكلاليب أهون من بذل معروف بترهيب» وأنشأ يقول:

أبقى الحوادث من خليفك مثل جندلة المراجع
قد رامننى الأعداء قبلك فامتنعت عن المظالم^(٢)
فمع أن الحاسد يعرف تماماً أنه واحد من الحساد العشرة، إلا أنه
يحاول أمام المحسود تبرير موقفه بدفع التهمة عنه، ولذا يدعو على
الحساد- وهو واحد منهم- ويقول كلمة الحق أمام محسوده؛ لأنه أمامه
بينما هو الطاعن من الخلف، أو واحد ممن طعنوا، ويأتى بالعبارات

(١) أناسى: جمع إنسان وأصله أناسين (عن المعجم الوسيط. مادة (ء ن س) وفي التنزيل العزيز: (ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا) سورة الفرقان الآية ٤٩.

(٢) رسائل الجاحظ ١ / ٣٦٨ والبيتان قالهما معاوية بن أبي سفيان وكان قد مرض فأرجف به مصقلة بن هبيرة، فحملة زياد إلى معاوية وكان قد شفى فأخذ بيد مصقلة بشدة وقال: وأنشد هذه الأبيات وبعد البيتين:

صلباً إذا خار الرجاء لـ أبل ممتنع الشكائم

انظر: الأمل لأبي علي القالي ٢ / ٣٤٥ الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٥ م.

وانظر: شرح القوائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص ٣٢٩ تحقيق عبد السلام هارون. ط. خامسة. دار المعارف ١٩٩٣م.

التي يستنكر فيها هذه الفعلة الدنيئة، كي يبعد التهمة عن نفسه فهو منافق واضح النفاق.

لم يكتف الجاحظ بكشف الأعياب وحقد واحد من الحساد العشرة لكنه أراد أن يكشف عن باطنهم، ويبين نفاقهم، وكأنه يرسم صورة صادقة حية لطبيعة نفس الحاسد من خلال نماذج عشرة من الناس. قال الجاحظ: ودفعها- أي الرقعة التي أتته- إلى من قرب منه فقرأها. وقال الثاني: صكه جلمود لكل مرعدٍ حسودٍ يمتطر العرف بالتهديد خلّ الوعيد، يذهب في البید وأنشأ يقول:

أبرق وأرعد يا يزي — د فما وعيدك لي بضائر^(١)

وبنفس الأسلوب الذي تحدث به الأول، رأينا الثاني ينهج نهجه ويسير على شاكلته؛ فهو يدعو على الحاسد حتى يبعد التهمة عن نفسه ويأتي بالأدلة والبراهين على براءته إذ يتمثل ببيت الكميت^(٢) ابن زيد، ومعناه أن الحاسد مهما أوتى من طاقة يحسد بها فلن يضير محسوده ولن يؤثر فيه.

وكان الجاحظ يوقف الحساد واحداً واحداً ليسمع منهم ويعلق عليهم، وبين السماع والتعليق يورد نماذج أدبية يستشهد كل حاسد بها على ما يقول.

(١) رسائل الجاحظ ٢ / ٣٦٨.

(٢) كما في اللسان مادة (برق، رعد) وشرح القصائد السبع الطوال الجاهليات

قال الجاحظ: ودفعها إلى الثالث فقرأها وقال: سألوا ظلماً، وخوفوا هضماً لقوا حرباً ولقيت سلماً. وأنشأ يقول:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع^(١)
ومعنى ظلماً أي إنهم يطلبون عائداً ليس من حقهم - وهو واحد منهم - وخوفوا هضماً أي إنهم أخافوه يريدون هضم حقه.

والجاحظ يأتي بهذه المعاني في عبارات قصيرة متناسقة ذات جرس موسيقي سببه اتحاد نهايات الكلمات (ظلماً.. هضماً، حرباً.. سلماً).
على ما بين الأولين من ترادف والثانيين من تضاد. ثم يستشهد بعد ذلك ببيت جرير، وهو في نفس المعنى السابق.

قال الجاحظ ودفعها إلى الرابع فقرأها وقال: «قولُ الذليل وبؤله سيان».

وأنشأ يقول:

ما ضر تغلب وائل أهجوتها أم بُلت حيث تناطح العنزان^(٢)
ودفعها إلى الخامس فقرأها وقال: نهيق الحمار، ودم الأعيار^(٣)
جَبَّارٌ جَبَّارٌ^(٤) وأنشأ يقول:

(١) رسائل الجاحظ ٣ / ٣٦٨ - ٣٦٩.

(٢) البيت قاله الفرزدق في هجاء جرير وانظر ديوان الفرزدق ٨٨٢ والبيان والتبيين للجاحظ ٣ / ٣٤٨ والخانجي.

(٣) الأعيار: جمع مفردة عار وهو كل ما يلزم منه سبة أو عيب. الوسيط (ع. ي. ن).

(٤) الجبار: الهدر، وهو ما لا قصاص فيه ولا غرم. يقال: ذهب دمه جباراً=.

ما أبالي أنب^(١) بالحزن تيس^(٢) أم لحانى بظهر غيب لنيم^(٣)
شبهه كلام الحاسدين بنهيق الحمار والله تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّ
أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (١٩) ^(٣)، وهو تشبيه مناسب لحال
الحاسد وصوته الذى لا يرجى منه خير، ولا يأتى منه منفعة.
ودفعها إلى السادس فقرأها وقال: «إذا علقك الأمجاد، فليهن عليك
الحساد وأنشأ يقول:

إذا أهل الكرامة أكرمونى فلا أخشى الهوان من اللثام
ودفعها إلى السابع فقرأها وقال: «كيف يخاف الصرعة من هو فى
ذى المنعة» وأنشأ يقول:

كم تنبحون وما يغنى نباحكم^(٤) ما يملك الكلب غير النبح من ضرر
ودفعها إلى العاشر فقرأها وقال: «نوكى هلكى، لم يعرفوا خبرك،
ولا ردوا أمرك، وأنشأ يقول:

فلو علم الكلاب بنو الكلاب بحالك عند سيدنا لذلوا^(٥)
عشرة أشخاص مرضى بالحسد يأخذهم الجاحظ عينة لنوعيات
البشر المختلفة، الذين يخضعون لظروف واحدة ومرض واحد، وكأنه

=الوسيط (ج ب ر).

(١) نب: صاح.

(٢) الرسائل: ١ / ٣٦٩.

(٣) سورة لقمان الآية ١٩.

(٤) الرسائل: ١ / ٣٦٩.

فى مختبر من المختبرات، يأخذ العينات ويجرى عليها التجارب ليخلص أخيراً بنتيجة حتمية واحدة هى أن الحسد مرض خطير جداً، وأن دورته فى جسم الإنسان- أياً كان- وأثره وسلبياته واحدة؛ ولذا فإنه ينبه الناس إلى خطورة الحاسد ويشير إليه بأوصافه التى لا تنفك عنه ليُعرفه ويعرّيه ويكشف أساليبه وخداعه وحسده فيقول: «وقلت: إنك ربما غلطت فى أمره لما يظهر لك من برة ولو كنت تعرف الجليل من رأى، والدقيق من معنى، وكنت فى مذاهبك فطنا نقاباً، ولم تك فى عيب من ظهر لك عيبه مرتاباً، لاستغنيت بالرمز عن الإشارة، وبالإشارة عن الكلام، وبالسّر عن الجهر، وبالخفض عن الرفع، وبالاختصار عن التطويل، وبالجمل عن التفصيل، وأرحتنا من طلب التحصيل»^(١). وهذه وصية للإنسان أن يكون دقيقاً فى ملاحظته، وأن يكون فطنا فى التعامل مع الآخرين، خاصة الحساد منهم، وأن يعرف كيف تجرى الأمور من حوله؛ فمن ظهر منه عيب فلا بد أن يُبحث أمره.. كما أنه يجب عليه أن يلحظ تصرفات الناس من حوله فلا يفوته رمز أو حتى إشارة إلا ويحللها ليقف على ما يقصد صاحبها منها، وإذا كرهه أو نفر منه يبحث عن سبب ذلك وسيجد أنه الحسد.

(١) الرسائل: ٣ / ١٨.

وقد استخدم الجاحظ في هذه العبارة البديع غير المتكلف؛ لإبراز المعانى وتوضيحها؛ فلفظ الجليل يطلق على الأمر القليل والكثير من الألفاظ التى تفيد المعنى وضده، واستخدم للمعنى لفظ (الدقيق) ليناسب القليل من المعانى، كما استخدم صيغة المبالغة (فعال) لإفادة الاستمرارية فى الصفة والمبالغة فيها.

وجاء الجاحظ بالمتراذفات لتثبيت المعانى وتقويتها فى نفوس السامعين؛ فالرمز؛ إشارة، والإشارة رمز يقال: رمز إليه رمزاً، أو ما وأشار بالشفقتين أو العينيين أو الحاجبين أو أى شىء كان^(١). كما أن الإشارة يمكن أن تكون كلاماً، وقد سمع عن العرب أنهم كانوا يقولون قال بيده أو قال برأسه.

وظهرت براعة الأديب الكبير فى استخدام التضاد أروع استخدام من غير تكلف كما هو واضح بين: السر والجهر. والخفض والرفع. والاختصار والتطويل. الجمّل والتفصيل.

والجاحظ - رحمه الله - لا ينخدع بكلام الحاسدين، ولا تروقه دعواتهم على الحساد، ولا يصدق ظاهرهم أمامه؛ فإن ظاهرهم لا يؤخذ به؛ لأنهم منافقون، والأهم من ذلك ما تخفيه نفوسهم، وما تكنه صدورهم متمثلاً ذلك فى أقوالهم وأفعالهم وألوان وجوههم وتصرفاتهم

(١) المعجم الوسيط: مادة (ر م ن).

إزاء محسوديهـم. وهو لا يريد أن يعرف ذلك لنفسه فقط وإنما يُعرفه كل الناس حتى يتجنبوا سهام حُسادهم فيقول: فإذا أردت أن تعرف آية مصداقه فاذنبنِ إليه من يُهينك عنده، ويذمك بحضرته، فإنه سَيُظْهَر من شأنه لك ما أنت به جاهل، ومن خلاف المودة ما أنت عنه غافل^(١). وبطبيعة الحال فإنه ينطوى على نفس خبيثة دنيئة ومن ثم فإنه لا يفتقر عن سب محسوده وقذفه، وشتمه ورجمه بكل ما أوتى من ألفاظ مبتذلة لا يمنعه دين ولا خلق في كل ما يقول، كما أنه سيهجم على محسوده في غيبته؛ بأن يُخطئ له كل آرائه حتى ولو كانت صحيحة؛ يقول الجاحظ: «ومتى رأيت حاسداً يصوب لك رأياً إن كنت مصيباً، أو يرشدك إن كنت مخطئاً، أو أفصح لك بالخير في غيبته عنك، أو قصر في غيبته لك»^(٢). فهو— وهو أمام محسوده— يخطئ كل آرائه، ولا يرشده إلى الصواب إن كان يعرفه، وفي غيبته عنه يغتابه ويذمه، ويصفه بصفات سيئة سواء أكانت فيه أم لم تكن. وقد سئل رسول الله— ﷺ — عن الغيبة فقال: «هي ذكرك أخاك بما يكره. قالوا يا رسول الله أرأيت إن كان فيه ما أقول قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتته»^(٣).

(١) رسائل الجاحظ ٣/ ١٦.

(٢) نفس المصدر ٣/ ١٧-١٨.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/ ١٤٢ طبع الريان ط. أولى ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧.

ويبين الجاحظ أن حسد الحساد لا يأتي فقط عند اللقاء أو في ظروف خاصة، كلا فإن الحاسد دائم الحسد لمحسوده لا يغفل عنه ولا يفتر فيقول: «وهو ألح»^(١) في حسده لك من الذباب وأسرع في تهريقك من السيل إلى الحدور»^(٢).

وقد شبه الجاحظ الحاسد في هذا الموضع بالذباب، ووجه الشبه الإلحاح في كل من المشبه والمشبه به، وقد ذكر شيئاً عن الذباب والإلحاح في موضع آخر إذ يقول: «فأما الذى أصابنى أنا من الذباب، فإننى خرجت أمشى من عند ابن المبارك أريد دير الربيع، ولم أقدر على دابة، فمررت فى عشب ونبات ملتف كثير الذبان فسقط ذباب من ذلك الذبان على أنفى فطردته، فتحول إلى عيني. فزدت فى تحريك يدي، فتدحى عنى بقدر شدة حركتى وذبى عن عيني، - ولذباب الكلا والغياض والرياض وقع ليس لغيرها- ثم عاد إلى فعدت عليه، ثم عاد فعدت بأشد من ذلك. فلما عاد استعملت كمى فذبيت به عن وجهي. ثم عاد وأنا أحث السير أوئل بسرعتي انقطاعه عنى. فلما عاد نزعت طيلسانى من عنقى، فذبيت به عنى بدل كمى، فلما عاود، ولم أجد له حيلة، استعملت العدو، فعدوت منه شوطاً لم

(١) الإلحاح على الشيء، المواظبة عليه، يقال: ألح السحاب: دام مطره، وألح عليه بالمسألة: ألحف. عن المعجم الوسيط (ل ح ح).

(٢) رسائل الجاحظ ١٦/٣.

أتكلف مثله مذ كنت صبياً، فتلقاني الأندلسي فقال لي: ما لك يا أبا عثمان؟ هل من حادثة قلت: نعم أريد أن أخرج من موضع للذبان فيه سلطان. فضحك حتى جلس وانقطع عني، وما صدقت بأنقطاعه عني حتى تباعد جداً^(١).

هذا هو إلحاح الذباب كما صوره الجاحظ، وهو يجعل إلحاح الحاسد مثله. ووجه الشبه بين الحاسد والذباب، في تصوري أن الذباب حشرة قذرة لا تعيش إلا حيث يعلم الجميع، في بيئة فاسدة غير نظيفة، وكذا الحاسد فإنه يعيش بعيداً عن دينه لا يعرف قدر ربه بل إنه ليعارض خالقه فيما يمتنُّ به على عباده ومن ثم فإنه في بيئة داخلية كالبيئة التي يعيش فيها الذباب. بل ربما كان إلحاح الحاسد في حسده أشد من إلحاح الذباب؛ ولذا فإنه استعمل أفعال التفضيل (أَلَحَّ) الذي أفاد زيادة إلحاح الحاسد على إلحاح الذباب، ذلك لأن الذباب يتطفل ويقترب من النظافة ربما عن طريق الخطأ أو الجوار. أما واقع الحاسد وبيئته التي يعيش فيها، فإنها لا تنفك عن طبيعتها أبداً.

وامتداداً لبيان حقيقة الحاسد يبين الجاحظ أنه أسرع في تهريق محسوده من السيل إلى الحدود؛ فحسده شديد جارف كهذا السيل الذي ينحدر من أعالي الجبال إلى الوديان، فيأخذ أمامه كل شيء

(١) الحيوان للجاحظ ٣ / ٣٤٦.

ويقتلع الأشجار المثمرة، والزروع المخضرة، ولا يدع شيئاً أمامه للإنسان والإنسانية يُنتفع به. وهو تشبيه مناسب جداً حيث إنه يناسب طبيعة الحسد والحاسدين؛ فحسدهم جارف عاتٍ، يريدون أن يقضوا به على كل ما هو نافع للإنسان والإنسانية. فينظرون إلى الخير الذى أعطاه الله للمحسود بالغیظ والحقْد والحنق، وتخرج السهام المسمومة من عيونهم فتقضى على كل ما هو نافع من المال أو الولد أو أى مظهر من مظاهر الخير.

بل إن خطر الحاسد أشد وأعتى من خطر السيل، وقد عبر الجاحظ عن ذلك باللفظ (أسرع).

والمصدر (تهريق) وفعله هَرَقَ يفيد سيلان دم المحسود، وهو صريع على أرض الظلم والفساد التى يعيش عليها القاتل الملعون (الحاسد). وقد ذكر الأستاذ عبد السلام هارون فى تحقيقه أن اللفظ (تهريقك) ورد فى نسخة أخرى (تمزيقك)^(١) وهو - أيضاً - يفيد نهاية حياة المحسود وتمزيق جسده وتقطيعه إرباً إرباً على يد حاسده بما يصيبه من حسد.

ومهما بذل المحسود من محاولات لإرضاء الحاسد واستجلاب حبه له، فلن يفلح مهما أوتى من وسائل وحيل، يقول الجاحظ فى أسلوب ساخر.

(١) رسائل الجاحظ بتحقيق الاستاذ عبد السلام هارون ٣ / ١٦ طبعة الخانجي.

ط. أولى ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

(... وإن رفعت القذى عن לחيته، وسويت عليه ثوبه فوق مركبته، وقبلت صبيته بحضرتة، ولبست له ثوب الاستكانة عند رؤيته، واغتفرت له الذلة، واستحسننت كل ما يقبح من جهته وصدقته على كذبه، وأعنته على فجرته...).

هكذا يعرض الجاحظ كل هذه الأساليب والطرق والحيل لاستجلاب عطف الحاسد، وجعله ينسى حسده لمحسوده، ولكن هيهات، وفي نفس الوقت يصفه الحاسد بعدة صفات مذمومة، في صور متعددة (وإن رفعت القذى عن لحيته) كناية عن أن الحاسد شخص قذر تشمئز منه الناس، وقذارته في وجهه. وقوله: (واغتفرت له الذلة). كأن أفعاله وتصرفاته ذلل وخطئ. وقوله: (واستحسننت كل ما يقبح من جهته) كناية عن أنه لا يأتي منه إلا كل قبيح.

كما أنه لا يخفى أثر اتحاد نهايات الكلمات: لحيته، مركبته، صبيته، بحضرتة، رؤيته. قد أعطت جرساً موسيقياً عذباً من اتحاد التاء والهاء في كل منها، وأدى الانفثاء الناتج عن حرف الهاء ارتياحاً في النفس واطمئناناً.

وبعد أن أورد جملة ذات نهاية مختلفة عن سابقتها (واغتفرت له الذلة) رجع إلى نهايات الجمل الثلاث السابقة بنهاية مشابهة لها بقوله (واستحسننت كل ما يقبح من جهته). فأعاد ما كان قد انقطع من جرس موسيقى، وقد أدى هذا الانقطاع ذو الفترة الوجيزة إلى التنبيه

واليقظة ؛ كمن يستمع إلى إيقاع معين فينقطع هذا الإيقاع فترة فيثير ذلك انتباه السامع ويدعوه إلى اليقظة لاستيعاب المعنى وتوضيح الفكرة.

وليسَ هذا شأن الحاسد القريب الذي يرى محسوده رأى العين دائماً، وإنما حقيقة الحاسد واحدة ؛ وهى مهما تباعد المكان فإننا نرى الحاسد يسلك مع محسوده المتباعد عنه نفس المسلك كما يقول الجاحظ: «فقد رأينا وشاهدنا من كان يسكن العراق وينتحل العلم والأدب، انتهى إليه خبر مشارِكٍ له فى الصناعة من أهل خُرَاسَانَ وجنبة بلخ من اتساق الرياسة فى بلده، وجميل حاله، ونبيل محله عند أهل مصره، وطاعة العامة له، وترادف الناس عليه، فطار قلبه فَرَقاً، وأخذته الأرباء، وتنفس الصعداء وانتفض انتفاض المفلس الممطور»^(١). فجعل الجاحظ قلب الحاسد طائراً يطير من شدة الفزع لا يستقر ولا يهدأ؛ استعارة جميلة تصور الطبيعة القلقة للحاسد، كما أن الأرباء بمعنى تواتر النفس والنهيج، مفردها (رَبَو)، جعلها شيئاً بشعاً يأخذ الحاسد وينقله من مكان إلى مكان، لأن الحاسد ينتقل من حال إلى حال، ولذا فإنه نقل قول من قال: «.. لم ير ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد نعمة، فإن نَفْسَه متصل، وكربه دائم، وفكرته لا تنام»^(٢).

(١) الرسائل ١ / ٣٤٨.

(٢) المصدر نفسه.

ومن ثم فإنه يستنكر على من ينتظر الخير من الحاسد؛ لأنه لا يأتي منه خير أبداً فيقول: «أطلب- ويحك- أثراً بعد عين، أو عطراً بعد عروس، أو تريد أن تجتني عنياً من شوك، أو تلتمس حلب لبن من حائل»^(١). فإذا وُجد إنسان ينتظر خيراً من حاسد فإن الجاحظ يبعث إليه بهذه الرسالة العاجلة وفيها بعض صفاته: «إنك إذن أعيا من باقل، وأحمق من الضبع، وأغفل من هرم»^(٢).

ولكن هل ينتقل الحسد من مكان إلى آخر من غير انتقال الحاسد؟ وهل يكون له أثر إذا كان الحاسد في بلد والمحسود في بلد آخر كما ذكر الجاحظ؟

يقول ابن القيم- في هذا الصدد- «.... والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية كما يظنه من قل علمه ومعرفته بالطبيعة والشرعية، بل التأثير يكون تارة بالاتصال، وتارة بالمقابلة، وتارة بالرؤية، وتارة بتوجيه الروح نحو من يؤثر فيه، وتارة بالأدعية والرقى والتعوذات، وتارة بالوهم والتخيل»^(٣). فلا يشترط ابن القيم مكاناً معيناً أو وقتاً، بل يرى أن أثر الحسد يمكن أن يتحقق في أي مكان بأي كيفية، بل إنه يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك إذ يقول (ونفس العائن لا يتوقف

(١) نفس المصدر ٣ / ٩٣.

(٢) نفسه ٣ / ٢٠.

(٣) زاد المعاد ٣ / ١١٨.

تأثيرها على الرؤية بل قد يكون أعمى فيوصف له الشيء فتؤثر نفسه فيه وإن لم يره، وكثير من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية وقد قال تعالى لنبيه ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ٥١﴾ (١) وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ١ مَلِكِ النَّاسِ ٢ إِلَهِ النَّاسِ ٣ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ٦﴾ (٢) (٣).

وبذلك يُثبت ابن القيم - رحمه الله - أن الحسد يمكن أن يكون في الأبعد. وقد طلب الله من نبيه - ﷺ - أن يتعوذ من شر الحاسدين، كما أنه نبه إلى أن الكافرين يكادون أن يزلقوه بأبصارهم ومنهم القريب والبعيد عنه. فدل ذلك على أن الحسد يمكن أن يؤثر في الأبعد.

(١) سورة القلم الآية ٥١.

(٢) سورة الناس الآيات ١ - ٦.

(٣) زاد المعاد ٣٠ / ١١٧.

الحسد والعين

روى مسلم في صحيحه أن النبي - ﷺ - قال : «العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين»^(١). وثبت عنه - ﷺ - أنه كان يتعوذ من الجان وعين الإنسان^(٢). وهذا يدل دلالة قاطعة على أن العضو الذي يؤدي الحسد فاعليته به هو العين، وقد سُمي الحسد به مجازاً فيقولون «العائن» ويقصدون «الحاسد» ويقولون (فلان عان فلان) أى أصابه بعينه، يعنى حسده.

إذن فللعين أثر مادي ينتقل من الحاسد إلى المحسود. وقد فسر ابن القيم سبب هذا التأثير أو كيفية تأثير العين في المحسود بقوله : إن العائن إذا تكيفت نفسه بالكيفية الرديئة انبعث من عينه قوة سمية تتصل بالعين، فيتضرر قالوا : ولا يستنكر هذا، كما لا يستنكر انبعاث قوة سمية من الأفعى تتصل بالإنسان فيهلك. وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعى أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك، فكذاك

(١) صحيح مسلم شرح النووي ١٤ / ١٧١ طبع الريان ط. أولى سنة ١٤٠٧ هـ.

١٩٨٧ م.

(٢) زاد المعاد ٣ / ١١٧.

العائن^(١). وقالت فرقة أخرى: لا يستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة غير مرئية فتتصل بالمعين وتتخلل مسام جسمه فيحصل له الضرر.

ورد ابن القيم بشدة على منكرى هذه التأثيرات والذين قالوا: إن الله قد أجرى العادة بخلق ما يشاء من الضرر عند مقابلة عين العائن لمن يعينه من غير أن يكون منه قوة ولا سبب ولا تأثير أصلاً. فقال: وهذا مذهب منكرى الأسباب والقوى والتأثيرات في العالم، وهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب العلل والتأثيرات والأسباب وخالفوا العقلاء أجمعين^(٢).

وابن القيم بهذا يكون قد حكم على منكرى أثر العين في الحسد بعدم الفهم والإدراك للأسباب والمسببات من حولهم. وأخيراً فإنه يتهمهم بالتخلف والجهالة، ثم يستطرد ابن القيم - رحمه الله - في إثبات أثر العين على المعين ويبرر حجته في ذلك بالأدلة القاطعة والبراهين الواضحة فيقول: (ولا ريب أن الله - سبحانه - خلق في الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة، وجعل في كثير منها خواص وكيفيات مؤثرة، ولا يمكن للعاقل إنكار تأثير الأرواح في الأجسام فإنه أمر مشاهد محسوس وأنت ترى الوجه كيف يحمر حمرة شديدة إذا

(١) نفس المصدر.

(٢) زاد المعاد ٣ / ١١٧.

نظر إليه من يحتشمه ، ويستحي منه ، ويصفر صفرة شديدة عند نظر من يخافه إليه ...) ^(١) ويبين ابن القيم في بحثه هذا أن التأثير كله ليس من العين ولكنه تأثير من الأرواح ، وروح الحاسد مؤذية للمعين ؛ فليست العين - إذن - هي بالذات مصدر الأذى للمحسود ولكن هناك قوة روحية خفية هي التي فعلت ذلك عن طريق العين ، فكأن العين طريق فقط تنفذ منه السموم الروحية الخبيثة.

وهذا أمر - أعني تأثير الأرواح - أكده الجاحظ ، وبين أن الأرواح هي السبب الرئيسي والمباشر في تأثير الحسد ، وجعله قوة خبيثة مؤثرة فيه فيقول : (والحسد نار وقوده الروح ، لا تبوح أبداً أو يفنى الوقود.) ^(٢) وفي هذه العبارة لا يقول : الحسد كالنار ، أو حتى مثل النار وإنما جعله تشبيهاً بليغاً أنه هو ، وهذه النار لا بد لها من مصدر تنشأ منه وتستمر به وهو الروح ، فكأن الروح هي السبب وهي الأساس في أمر الحسد كله كما ذكر ابن القيم في العبارات السابقة.

والجاحظ يقول بأثر العين كعضو للحسد ، ويرى ما رآه الآخرون في ذلك إذ يقول : (ويقال الحسد لا يبدو في العين ، وعلى اللسان المقصور عند أهله المؤتلفين ، والعداوة تبدو وتنجم قرونها وينبسط لسانها عند

(١) زاد المعاد ٣/ ١١٨.

(٢) رسائل الجاحظ ١/ ٣٤٧.

الموافقين له والمخالفين عليه^(١). وهو- هنا- يجعل للعداوة قرونا وكأنها ثور هائج يحطم كل ما حوله بقرونه، وهى صورة موافقة لطبيعتها وطبيعة صاحبها، كما أنه مرة أخرى- يجعل لها لساناً ينبسط وكأنها أفعى قاتلة، وهذه الصورة موافقة لمواصفات العداوة، والتي سنتحدث عنها بتفصيل فيما بعد.

وأما العين فجعلها الجاحظ مكاناً للحسد وأداته، ويظهر هذا من اللفظ (تبدو) أى إن العين هى مكان الحسد وليست سبباً له.

وفى العصر الحديث يتعرض لهذا الموضوع عالم جليل هو الشيخ محمد متولى الشعراوى فيحاول أن يثبت حقيقة الحسد ووجوده بما استحدثه العلم وأثبتته الواقع، وهو- بادئ ذى بدء- يؤكد وجود الحسد فيقول: (والحسد مقطوع به، وصحيح مؤكد الوجود، لأنه ورد فى القرآن الكريم...: وهو شر من قوى الغيب التى تضر الإنسان....)^(٢). ثم يقارن الشيخ بين الحسد وأثر القوى الدقيقة التى لا ترى بالعين المجردة فيقول: ... إن الشئ كلما كان دقيقاً لا تراه العين كان أثره وفعله أكبر، وكان عنيفاً فى فعله؛ فأدق الجرائم مثلاً هى أعنفها فى التأثير فى الجسم، وهى أقواها فى مقاومة الدواء، وكلما ارتقيناً

(١) رسائل الحاجظ ١/ ٣٥٦.

(٢) السحر، والحسد. محمد متولى الشعراوى/ ١٢٠ مؤسسة أخبار اليوم.

فى العلم واستطعننا تكبير الأشياء مئات الألوف من المرات، أو ملايين المرات، اكتشفنا جراثيم وأشياء غاية فى الدقة، وتأثيرها غاية فى العنف.... إذن فكوننا لا نرى شيئاً للحسد، فليس معناه أنه لا تأثير له أو أن تأثيره ضعيف^(١).

ومرة أخرى يقارن الشيخ بين الحسد وبين قوى أخرى لا تُرى بالعين المجردة ليثبت حقيقة الحسد فيقول: إنه مع تقدم العلم تم اكتشاف أنواع عديدة من الأشعة، منها أشعة الليزر التى تم اكتشافها فى السنوات الأخيرة، وهى من أدق الوسائل للقياس، بل إنها تستخدم فى العمليات الجراحية الدقيقة، بحيث تتم العملية الجراحية بأشعة الليزر دون تدخل مشرط الجراح ودون نزول قطرة دم واحدة.. ومع ذلك هل يرى المريض الذى يعالج أو تُجرى له العملية الجراحية بأشعة الليزر هل يرى هذه الأشعة أو يعرفها وهى تدخل جسده؟... لا، ولكن تأثيرها داخل الجسد أقوى من تأثير مشرط الجراح). وهكذا يقترب الشيخ من أمر الحسد، ويقر بوجوده، وحقيقته، بما أثبت بالدليل القاطع والبرهان العملى، ثم يخلص إلى هذه الحقيقة: إذن هناك شىء خفى عن العين يستطيع أن يدخل إلى الجسد ويفعل فيه أشياء أكثر أثراً من مشرط الجراح، ما الذى يدريك أن عين الحاسد لا

(١) مصدر سابق ١٢١.

يخرج منها أشعة أشد فتكاً من أشعة الليزر تدخل إلى جسدك وتفعل فيه أشياء وأنت لا تدري^(١).

وسواء ما ذكر ابن القيم أم الشعراوى من آراء، فإننا لا نستبعد خروج أشعة غير مرئية من عين الحاسد تكون هى القوة المدمرة فى المحسود، هذه الأشعة يوجهها الحاسد حيث يشاء وفى أى وقت يريد.

(١) مصدر سابق، ١٢٢.

الحسد فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة

أولاً: الحسد فى القرآن الكريم

لقد أنزل الله - تبارك وتعالى - القرآن هدى ونوراً، وشفاء لما فى الصدور وتبياناً لكل شىء وموعظة. وقد نبه الله الناس إلى القرآن أنه شفاء فى عدة مواضع منه ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ ^(١) والشفاء فى هذه الآية يقصد بها القرآن لأنه قدّم (موعظة). كما أنه شفاء لما فى الصدور من أمراض.

وقال - تعالى -: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ ^(٢) وقد قرن الله تعالى الشفاء بالرحمة فى هذه الآية الكريمة، لأن الشفاء - أيضاً - رحمة من الله لعباده. وما أحوجنا إلى رحمة الرحمن فى الدنيا والآخرة، يسبقها شفاء لما ينتابنا من أمراض وعلل نفسية.

(١) سورة يونس الآيتان ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٨٢ .

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۚ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾^(١) فهو شفاء للمؤمنين فقط وليس لغيرهم. والمؤمنون - وحدهم - هم الذين يستحقون هذا التكريم لأنهم آمنوا به وصدقوه وعلموا أنه منزل بالحق من ربهم.

وإذا كان شأن القرآن ما ذكر من أنه شفاء ورحمة للمؤمنين من كل الأمراض النفسية التي تصيب بعض أفراد المجتمع فتؤثر فيهم هم ومحسوديهم تأثيراً سلبياً يمتد فيشمل ضرره كل أنحاء المجتمع المسلم بالتخلف والجمود كما سنعرف فيما بعد.

من أجل ذلك ورد ذكر الحسد والحاسدين في القرآن الكريم باعتبار الحسد مرضاً، واعتبار الحاسد شراً مستطيراً، نعوذ بالله منه، كما ورد ذكر الحسد في السنة النبوية المطهرة، في معرض بيان الرسول الكريم لخطورة هذا الداء، ووصف الدواء له؛ إذ هو الرحمة المهداة من الله إلى الناس إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢) وقال - تبارك اسمه - ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ

(١) سورة فصلت الآية ٤٤.

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾^(١) والرحمة مقترنة بالشفاء كما في الآيات السابقة.

ومن ثم فقد ورد ذكر الحسد في القرآن بصيغ متعددة، فورد بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾^(٢) وورد بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٣).

كما ورد بصيغة المصدر في معرض كشف ما بداخل أهل الكتاب من غل وحقد وحسد على كل من صدق برسالة الخير والنور فقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾^(٤). وأورد القرآن ذكر الحاسد لكشفه والابتعاد عنه وتعليم الناس كيف يستعيذون بالله من شروره وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾^(١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ^(٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ^(٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ^(٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ^(٥).

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨.

(٢) سورة الفلق الآية ٥.

(٣) سورة النساء الآية ٥٤.

(٤) سورة البقرة الآية ١٠٩.

(٥) سورة الفلق الآيات ١-٥.

موقف الجاحظ من آيات الحسد:

لقد استشهد الجاحظ ببعض من آيات الحسد في القرآن الكريم وبالأحاديث النبوية الشريفة في مواضع متعددة، قال الجاحظ: ^(١) وما أوتى المحسود من حاسده إلا من قبل فضل الله عنده، ونعمه عليه، قال الله عز وجل: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ ^(٢) وقد أورد هذه الآية ليستدل بها على سبب حسد الحاسد.

وفي معرض بيان درجة الحسد وما يطمناه الحاسد لمحسوده، قال الجاحظ ^(٣): والحسد عقيد الكفر، وحليف الباطل، وضد الحق، وحرب البيان، فقد ذم الله أهل الكتاب به فقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ ^(٤).

وفي معرض بيانه للغل وتعريفه له، وأنه نتيج الحسد ورضيعة وغصن من أغصانه ^(٥)..... يبين أن الله سبحانه وتعالى امتن على عباده

(١) رسالة الحاسد والمحسود ٣ / ٤.

(٢) سورة النساء الآية ٥٤.

(٣) رسالة الحاسد والمحسود ٣ / ٤.

(٤) سورة البقرة الآية ١٠٩.

(٥) رسالة الحاسد والمحسود ٣ / ٢١.

فأدخلهم الجنة دار كرامته ولم يدخلوها إلا بعد نزع الغل من قلوبهم، لبيان أنها منزلة لا يستحقها إلا من طهر قلبه من كل هذه الأمراض الخبيثة؛ كالغل والحسد إذ يقول^(١): «ورأيت الله جل جلاله ذكر الجنة في كتابه، فجلاها بأحسن حليّة، وزينها بأحسن زينة، وجعلها دار أوليائه ومحلّ أنبيائه؛ ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فذكر في كتابه ما من به عليهم من السرور والكرامة عندما دخلوها وبوأها لهم فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ آدَخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۖ آمِينَ﴾ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ (٢).

كما أنه- في رسالة الحاسد والمحسود- استشهد بالآيات تلميحاً وليس تصريحاً؛ وذلك عندما طلب من المحسود ألا يكثرث بالحاسد وألا يعيره اهتماماً، فإنه مهما فعل معه فلن يفيد ذلك فيه شيئاً. فيخاطب المحسود قائلاً: (فما هذا العناء كأنك لم تقرأ المعوذة ولم تسمع مخاطبته نبيه- ﷺ- في التقديم إليه بالاستعاذة من شر حاسد إذا حسد)^(٣). في إشارة منه إلى قوله تعالى: «قل أعوذ برب الفلق...» الآيات.

(١) المصدر السابق.

(٢) الحجر الآيات ٤٥ - ٤٨.

(٣) رسائل الحاجظ ٣ / ١٩.

ثانياً: الحسد فى السنة النبوية المطهرة:

وأما الحديث النبوى ، فقد تناول موضوع الحسد كمرض خطير يصيب المجتمعات بالتخلف والتقهقر ، فعن الزبير - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «دب إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء ، وهى الحالقة ، أما إنى لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين ، والذى نفسى بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على ما تحابون به أفشوا السلام بينكم»^(١) . فجعل الرسول الكريم البغضاء والحسد والأحقاد كأنها شفرة لا تزيل الشعر ولكنها تزيل الدين ، وهنا إشارة لطيفة إلى أن الأعمال الصالحة مهما كثرت وزاد عددها فإن هذا الداء يزيلها ولا يبقى منها شيئاً ، كما لا يبقى موسى من الشعر مهما كثر . ثم يصف الرسول الكريم الدواء النافع ، وهو إفشاء السلام لأن من شأنه أن يزيل العداوة والبغضاء التى فى القلوب .

وقد استشهد الجاحظ بصدور هذا الحديث فى رسالة الحاسد والمحسود فى معرض تعريفه للحسد ، وبيان أنه داء خطير ومرض عضال إذ يقول : «وهو باب غامض وأمر متعذر وما ظهر منه فلا يداوى وما بطن فمداويه فى عناء ولذلك قال النبى ﷺ : «دب إليكم داء الأمم قبلكم ، الحسد والبغضاء»^(٢) . فجاء الاستشهاد فى موضعه ووقع موقعه الصحيح ، ودل

(١) انظر الجامع الصغير ٢ / ٤ .

(٢) رسائل الجاحظ ٣ / ٤ .

دلالة واضحة على ثقافة الجاحظ الدينية وإلمامه بالحديث الشريف وحسن الاستشهاد به؛ فقد كان رحمه الله - مؤمنا حسن الإيمان، يرى أبداً في الخلاق يد الخالق وحكمته. وساعده اعتزاله في التفوق في الكلام وقرع الحج والاستدلال بالبراهين الدامغة.....

وفي قول الرسول ﷺ (دَبَّ) استعارة جميلة وصورة معبرة حيث إنه شبه الحسد كأنه دابة تدب على الأرض؛ تشخيص للمعنوى في صورة محسوسة لتوضيح الفكرة، فلا يدب إلا الدابة كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦) (١).

والرسول الكريم بهذا التعبير يصور الحسد كأنه وحش كاسر أو أسد شرس، يأتي إلينا من مخلفات الأمم السابقة، وكونه يأتي من الزمن الماضي ومن الأمم السابقة، ليجعله أشد ضراوة وعداوة، ويجعلنا أشد خوفاً وفزعاً منه، لعدم وقوفنا على طبائعهم، ومعرفتنا بأحوالهم.

وفي صورة أخرى ومشهد آخر يصور الرسول الكريم الحسد بأنه نار مؤججة وقودها الأعمال الطيبة الصالحة، فيقول ﷺ فيما رواه أبو هريرة: «إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» (٢). يبدأ الرسول

(١) سورة هود الآية ٦.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب باب (في الحسد) ح ٤ ص ٢٧٦ المكتبة

العصرية.

بالتحذير منه بلفظه (إياكم) أى أحذركم وذلك من دواعي شفقتة على أمته ورحمته بهم وهو ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ فَسَيَكُونُوا سَبْعًا مِّنَ الْمُنَاقِبَةِ﴾ (١) والمحذّر منه الحسد، وهو مرض يستحق التحذير منه. ثم يشبهه الرسول بالنار المؤججة التى تأتى على الأخضر واليابس؛ وما الأخضر واليابس إلا الحسنات والأعمال الصالحة التى يرجو الإنسان لنفسه منها النجاة فى يوم يجعل الولدان شيبا. ولكنها فى لحظة واحدة تكون رمادا وسرابا وكأن لم تكن، فالحسد قد امتد إليها بالسنته الملهبة فأتى على كل شىء منها. وقد أتى الرسول الكريم بالمشبه (الحسد) والمشبه به (النار) وأداة التشبيه (الكاف) ووجه الشبه (الإحراق) تشبيه متكامل الأركان وذكر أداة التشبيه - هنا - جاء بلاغة منه - ﷺ - لأن أمر النار وإحراقها مشاهد للجميع، فهى صورة لا تخفى على أحد فكأنه يقول كما رأيت النار وإحراقها وكيف تلقهم وقودها، كذلك الحسد فإنه يفعل بالحسنات كذلك.

وقد نهانا الرسول الكريم عن الحسد فى أكثر من موضع؛ فقد روى مسلم فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانا.» (٢)

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦ / ١١٥ دار الريان للتراث ط. أولى سنة ١٤٠٧ هـ.

١٩٨٧ م.

وبين- ﷺ- أن الحسد سبب شقاء صاحبه وبلائه في الدنيا والآخرة بما روى عن أنس^(١)- رضي الله عنه- أنه قال: كنا جلوساً عند رسول الله- ﷺ- فقال: «يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة». قال فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوئه؛ قد علق نعليه في يده الشمال، فسلم. فلما كان الغد قال- ﷺ- مثل ذلك. فطلع ذلك الرجل، وقال له في اليوم الثالث، فطلع ذلك الرجل. فلما قام النبي- ﷺ- تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال له: إني لأحيت أبى، فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً. فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت. فقال: نعم. فبات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى، ولم يقم حتى يقوم لصلاة الفجر. قال غير أنى ما سمعته يقول إلا خيراً. فلما مضت الثلاث، وكدت أن أحتقر عمله، قلت يا عبد الله، لم يكن بيني وبين والدى غضب ولا هجرة، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا وكذا. فأردت أن أعرف عملك، فلم أرك تعمل عملاً كثيراً فما الذى بلغ بك ذلك؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت. فلما وليت دعانى فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد على أحد من المسلمين فى نفسى غشاً ولا

(١) إحياء علوم الدين للإمام أبو حامد الغزالي ٣/ ٢٠٥.

حسداً على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: فقلت له: هي التي بلغت بك، وهي التي لا نطبق^(١).

فكان خلو قلب الأنصارى من الأحقاد سبباً فيما أخبر عنه به رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة.

أما رغبة الإنسان أن يحوز من الخير والفضل مثلما هو موجود عند الآخرين من غير أن ينقص شيئاً مما عندهم فليست حقداً ولا حسداً، وإنما هي الغبطة. ونحن مأمورون بها، لما أخرجه الشيخان والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل أعطاه الله تعالى مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار^(٢).

(١) الحديث رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين. ورواه البزار وسمى الرجل في رواية له سعدا وفيها ابن لهيعة. وانظر في ذلك كله (المغنى عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الأحياء من الأخبار) وهو كتاب على هامش إحياء علوم الدين للغزالي. دار الغد العربي ١٩٩٦م.

(٢) الحديث رواه البخاري في باب تمنى القرآن والعلم، وفيه لا تحاسد إلا في اثنين وفيه أيضاً: يقول لو أوتينا مثل ما أوتي. هذا لفعلت كما يفعل ٩ / ١٠٤ صحيح البخاري. دار الشعب.

وروى البخاري في باب الاغتباط في العلم والحكمة: لا حسد إلا في اثنين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها. صحيح البخاري ١ / ٢٨ دار الشعب. وانظر فتح الباري للحديث الأخير ١ / ١٦٥.

وقد ذكر الجاحظ هذا الحديث في نهاية رسالة (فصل ما بين العداوة والحسد)^(١) وقدم له بقوله: ولا نعلم الحسد جاء فيه شيء أكثر من حديث روى عن النبي - ﷺ - وساق الحديث.

أما في رسالة الحاسد والمحسود^(٢) فإنه يأتي بالأدلة الكثيرة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية المطهرة، ولا يكاد يسوق أمراً في الحسد سواء في تعريفه أم تاريخه أم العلاج منه أم أي شيء آخر إلا ويأتي بالدليل من القرآن والسنة بخلاف رسالة (فصل ما بين العداوة والحسد) التي لم يأت بحديث غير ما ذكر وأقر بأنه لا يوجد نص آخر في الحسد غيره، ومن القرآن لم يأت بآية واحدة طوال الرسالة عدا ما جاء به من جُمَلٍ تحمل معاني بعض الآيات الكريمة بما جعلنا نقول إن رسالة (فصل ما بين العداوة والحسد) كانت من بدايات عمله في مقتبل عمره، وأن الأخرى كانت في نهايتها.

(١) رسائل الجاحظ ١ / ٣٧٢.

(٢) ضمن رسائل الجاحظ ٣ / ١.

تاريخ الحسد فى أدب الجاحظ

الحسد من الأمراض الإنسانية الخطيرة، التى واكبت وجود الإنسان منذ خلقه الله- جلّت قدرته- فى السماء إلى أن نزل إلى الأرض، واستمر معه فى الأرض على اختلاف الأحقاب التاريخية، والفترات الزمنية، وعلى اختلاف الأجناس والبيئات، والظروف والملابسات، وعلى اختلاف الملل والديانات إلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وفى ذلك منشؤه إلى حكمة الله تعالى فيما خلق عليه العباد من تفاوت فى كل أمر من أمورهم؛ فقد خلق الله السليم والسقيم، والغنى والفقر، والجميل والدميم، وذا السلطان والجاه وغيره والجاهل والمتعلم، والعاقل والمعتوه إلى غير ما خلق الله من أصناف البشر على اختلاف أقدارهم وتلك سنة الله فى خلقه ﴿فَلَنَجْجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنَجْجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (٤٣) (١).

كما خلق الله الإنسان الذى منه المؤمن والكافر، وحتى درجات الإيمان متفاوتة منها القوى ودونه، ونماذج الحسد على امتداد التاريخ كثيرة جداً لا تكاد تحصى ولا تعد؛ ففى كل بيئة من البيئات وكل تجمع من التجمعات البشرية نرى الشر المستطير يطل بأنياه الشرسة ومخالبه

(١) سورة فاطر الآية ٤٣.

العاتية وقرونه الشيطانية التي لا يكاد ينجو منها أحد إلا من حفظ الله
ولجأ إلى علاجه كما رسمه القرآن ووضحته السنة الشريفة كما سنعرف
فيما بعد.

وإذا كنا نتعرض لتاريخ الحسد على هذه الصفحات فإننا نأخذ منها
أمثلة على امتداد التاريخ البشرى منذ أن خلق الله آدم - عليه السلام - وإلى
ما كان من أمره إلى عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بما أخبرنا به القرآن الكريم
وسنة سيد المرسلين وبما ذكره الجاحظ في أدبه أو بالتحديد في رسالتيه
في هذا الشأن.

الحسد فى السماوات

حسد إبليس لآدم

لم يكن الحسد وليد الكوكب الأرضى الذى نعيش عليه، وإنما ظهر أول ما ظهر فى السماء وتمثل ذلك فى حسد إبليس - يلعنه الله - لأبينا آدم - عليه السلام - ولقد ذكر الجاحظ فى رسالة الحاسد والمحسود هذا الأمر أول ما ذكر عن تاريخ الحسد وسببه إذ يقول: ﴿خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (١) فلعنه وجعله إبليس، وأنزله من جواره بعد أن كان أنيساً، وشوّه خلقه تشويهاً، وموّه على نبيه تمويهاً، نسي به عزم ربه، فواقع الخطيئة، فارتدع المحسود وتاب عليه وهدى، ومضى اللعين الحاسد فى حسده فشقى وغوى» (٢).

إن الجاحظ يشير بهذه العبارة إلى ما كان من أمر سيدنا آدم - عليه السلام - وإبليس - عليه اللعنة - فى السماء قبل أن توجد حياة بشرية على ظهر الكوكب الأرضى وسبب ذلك - فيما حكاه القرآن - : فى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ

(١) من الآية ١٢ من سورة الأعراف، الآية ٧٦ من سورة ص.

(٢) رسائل الجاحظ ٦ / ٣.

لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْبِيَائُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴿١﴾

قال القرطبي: الأسماء - هنا - بمعنى العبارات فإن الاسم قد يطلق ويراد به المسمى كقولك: زيد قائم، والأسد شجاع. وقد يجرى الاسم في اللغة مجرى ذات العبارة وهو الأكثر في استعمالها ومنه قوله تعالى: «وعلم آدم الأسماء كلها» على أشهر التأويلات ومنه قول النبي - ﷺ -: «إن لله تسعة وتسعين اسما» ويجرى مجرى الذات، يقال: ذات ونفس وعين واسم بمعنى...» (٢).

ومعنى ذلك أن آدم - عليه السلام - كانت له حظوة كبيرة ومكانة رفيعة عند خالقه، وقد أوجد له الله هذه المكانة عند الملائكة الذين أمرهم بالسجود له لتلك المكانة ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٣٤﴾ (٣) وكان هذا السجود سابقاً لتعليمه الأسماء كلها كما يقول ابن كثير (٤).

(١) سورة البقرة الآيات ٣١ - ٣٣.

(٢) تفسير القرطبي مجلد ١ / ٢٤١. دار الشعب.

(٣) سورة البقرة الآية ٣٤.

(٤) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١ / ١٣٠. اختصار وتحقيق أحمد محمد

شاكر. دار المعارف ١٩٥٦.

وأمرُ الله للملائكة بالسجود كرامة عظيمة لآدم امتنَّ بها حتى على ذريته. فلما صدر الأمر من الكبير المتعال، صدع الملائكة بالأمر، وعصى إبليس - يلعنه الله -، فسجدوا واستكبر حسداً وكفراً، وقال أنا ناري وهذا طيني، وكان هذا بدء الذنوب الكبرى؛ استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام ^(١). وهذا معنى قول الجاحظ: «أول خطيئة ظهرت في السموات» والخطيئة؛ هي الذنب العظيم، يقول الراغب الأصفهاني: «..... والخطيئة والسيئة يتقاربان، لكن الخطيئة أكثر ما يقال فيما لا يكون مقصوداً إليه في نفسه، بل يكون القصد سبباً لتولد ذلك الفعل منه؛ كمن يرمى صيداً فأصاب إنساناً أو شرب مسكراً فجنى جناية في سُكره» ^(٢).

وأما في الأرض فقد عبر الجاحظ عن ذنب الحسد فيها بقوله (معصية) مشيراً بذلك إلى ما كان من حسد ولدى آدم على ما سنّبينه، وعبر الجاحظ بالمبنى للمجهول بقوله: (خُصُّ) لبيان أن الحسد من كسب الإنسان نفسه لا يجبره أحد عليه، وقوله: (أفضل الملائكة) لبيان أن الحسد يمكن أن يصاب به أي أحد مهما كانت منزلته فكانت النتيجة العصيان.

(١) نفس المصدر السابق ١ / ١٣٤.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، مادة (خ ط ء). دار المعرفة.

بيروت - لبنان.

وأما المقايسة؛ فيقال: قايِس الشيء قياساً ومقايِسةً: قَدَره، وقايِس الشيء بكذا وإلى كذا: قَدَره به، وقايِس فلاناً إلى كذا: سابقه^(١).

وعلى هذا فإن إبليس - لعنه الله - يسابق ربه في تقدير الأمور، ولكن هيهات، واستكبر عن السجود لآدم حقداً وحسداً منه أنه مخلوق من النار وآدم من الطين، والنار أفضل. وعلى هذا فإن المتكبر في كل زمان ومكان يظن أن له فضلاً ومكانة على المتكبر عليه، ومن أجل ذلك فإنه يستحق ما حل بإبليس (قلعنه وجعله إبليسا)؛ قال ابن منظور: أبلس من رحمة الله؛ أي يئس وندم ومنه سمي إبليس وكان اسمه عزازيل، وإبليس مشتق منه؛ لأنه أبلس من رحمة الله أي أويِس منه، وقال ابن اسحق لم يصرف لأنه أعجمي^(٢). واستحق إبليس بحسده وكبريائه ومقايسته لربه في حكمه أن ينزل من المكانة المرموقة والمنزلة الرفيعة التي كانت له، وهكذا كل حاسد ومتكبر لا يستحق هبة الله له ومن ثم فإنه في تقهقر مستمر وتأخر.

واختلف في أصل إبليس؛ هل هو من الملائكة أو هو خلق آخر من الجن، فالذين قالوا إنه من الملائكة رَدَّ عليهم بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْلِيْسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(٣).

(١) المعجم الوسيط. مادة (ق ي س).

(٢) لسان العرب. مادة (ب ل س).

(٣) سورة الكهف من الآية ٥٠.

ومن قالوا إنه من الجن رَدَّ عليهم بقول الله - سبحانه - ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣٤) والمستثنى من جنس المستثنى منه. وربما كان لفظ (جن) هو العامل المشترك بين الملائكة والجن أو الشياطين، هذا اللفظ الذى يعنى الاستتار والاختفاء وعدم الظهور، ولما كانت الملائكة والجن لهم نفس الخاصة فقد وجد اللبس بين مفهوم هؤلاء وهؤلاء. وكان تعدد الأقوال والآراء التى سوف نعرض لبعضها.

أورد القرطبى فى هذا الشأن ما حكاه الثعلبى عن ابن عباس: أن إبليس كان من حى من أحياء الملائكة يقال لهم الجن، خلقوا من نار السموم، وخلقت الملائكة من نور..... وكان إبليس رئيس ملائكة السماء الدنيا، وكان له سلطانها وسلطان الأرض وكان من أشد الملائكة اجتهداً، وأكثرهم علماً، وكان يسوس ما بين السماء والأرض، فرأى لنفسه بذلك شرفاً وعظمة فذلك الذى دعاه إلى الكفر، فعصى الله فمسخه شيطاناً رجيماً^(٢).

وهناك من يقول إنه من الجن وليس من الملائكة بدليل قوله الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا

(١) سورة البقرة الآية ٣٤.

(٢) تفسير القرطبى. مجلد ١ / ٢٥٢.

يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِئِنَّا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ
الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ (١). وهذه الآية صريحة في
الفرق بين الجن والملك.

ثم إن إبليس له ذرية والملائكة لأذرية لهم، قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ
وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ (٢) والذرية تحدث من
التقاء الذكر بالأنثى، والملائكة لا أنثى فيهم لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا
الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ
شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (٣) فإذا انتفت الأنوثة انتفى التوالد لا محالة
فانتفت الذرية. والملائكة معصومون عن ارتكاب المعاصي والخطايا، وإبليس
ليس كذلك، وخلق إبليس من النار على ما حكاه القرآن في قوله تعالى:
﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (٤) والملائكة مخلوقون من
النور؛ روى الزهري عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خلقت
الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار» (٥).

(١) سورة سبأ الآيتان ٤٠، ٤١.

(٢) سورة الكهف الآية ٥٠.

(٣) سورة الزخرف الآية ١٩.

(٤) سورة الحجر الآية ٢٧.

(٥) راجع في كل ما تقدم مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١ / ٦٥١ - ٦٥٢. دار الغد

نستطيع من كل ما سبق أن نرجح الرأى القائل بأن إبليس ليس من الملائكة للأسباب التى ذكرناها كما نستطيع القول أن الاستثناء فى قوله تعالى: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ» استثناء منقطع وهو مشهور فى كلام العرب، وقد ورد فى التنزيل فى مواضع متعددة كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۖ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۖ﴾ (٢٧) (١) وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۖ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۖ﴾ (٢٦) (٢). وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ۖ﴾ (٣) وهذا على خلاف رأى الجاحظ الذى رأى أنه كان من الملائكة.

وقد أورد الجاحظ فى الفقرة السابقة له عبارات متفاسقة يربط بينها سجع جميل منشؤه اتحاد نهايات الكلمات التى أحدثت موسيقى جميلة تستريح لها النفس وتهللاً كما فى قوله: «إبليساً، أنيساً» سين وإطلاق بعدها، والسين من حروف الصفير ذات الجرس الموسيقى العذب. ثم تأتى نغمة أخرى تحدث من نهايات الكلمات التالية: تشويهاً، تمويهاً. نغمة أخرى غير السابقة لليقظة والانتباه. وثالثة بين (وهدى ... وغوى).

(١) سورة الزخرف الآيات ٢٦ ، ٢٧.

(٢) سورة الواقعة الآيتان ٢٥ ، ٢٦.

(٣) سورة النساء الآية ٩٢.

كما أن الجاحظ استخدم للتأكيد المفعول المطلق في قوله (شوّه خلقه تشويها) وقوله (وموّه على نبيه تمويها) لتأكيد التشويه في الأولى والتمويه في الثانية.

الحسد فى الأرض

١ - حسد ولدى آدم

وإذا كان الحسد قد لوث جو السماء على كل ما فيها من نقاء وطهر، فإنه من باب أولى لا بد وأن يكون فى الأرض، وإن كان وجوده فى الأرض قد ترتب على حدوثه فى السماء؛ ذلك لأن الله - تعالى - جعل الجنة سكن آدم عليه السلام وزوجه حواء، ولكن إبليس لم ينس ما سبب له آدم من اللعنة والطرود من رحمة الرحمن عندما رفض أن يسجد له كما أمره ربه، وظل يحسده ويحقد عليه ويحاول غوايته؛ فلما أسكن الله آدم الجنة أطلق له حرية التمتع بكل ما فيها من نعيم عظيم، وخير عميم إلا شجرة واحدة أمرهم الله ألا يقربوها، أو أن يلتقطوا ثمارها ﴿وَقُلْنَا يٰٓآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥) لكن إبليس - لعنه الله - لما رأى هذه الحظوة لآدم، كبر عليه ذلك؛ فذهب إليهما بخبث: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ

(١) سورة البقرة الآية ٣٥.

﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَذَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴿١﴾

ونزل آدم - ~~عليه السلام~~ الأرض، وعاش فيها، وكانت الذرية منه، والحسد معهم عليها، وحدث ما حدث بين ابني آدم. ولقد حكى الجاحظ ذلك بقوله - ضمن سرده تاريخ الحسد - «وأما في الأرض فابنا آدم حيث قتل أحدهما أخاه فعصى ربه وأثكل أباه، وبالحسد طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين» (٢).

إن الجاحظ بهذا ليشير إلى ما كان من قابيل وهابيل على نحو ما حكى القرآن عنهما في قوله تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِم نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَا قُتْلُكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ

(١) سورة الأعراف الآيات من ٢٠ - ٢٤.

(٢) رسالة الحاسد والمحسود. ضمن رسائل الجاحظ ٦ / ٣.

الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِيمِي وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ
النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ (١)

روى السُّدِّي عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عباس وعن مرة عن
ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى
الآخر، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل، وكان أكبر من هابيل
وأخت هابيل أحسن، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه، وأمره
آدم أن يزوجه إياها فأبى، فأمرهما أن يقربا قربانا وذهب آدم ليحج
إلى مكة، واستحفظ السموات على بنيه فأبى، والأرضين والجبال
فأبى.... فلما ذهب قربا قربانهما فقرب هابيل جذعه (٢) سمينة، وكان
صاحب غنم، وقرب هابيل حزمة من ردىء زرعته فنزلت نار فأكلت
قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: «لأقتلنك حتى لا
تنكح أختي، فقال: إنما يتقبل الله من المتقين» (٣).

فلما تقبل الله من هابيل قربانه ولم يتقبل من قابيل حسد الأخير
الأول لسببين أحدهما: اختصاص هابيل بالفتاة الجميلة التى ولدت فى
بطن قابيل مع رغبة قابيل الشديدة فى حيازته لتلك الفتاة.
ثانيهما: أن الله تقبل قربان هابيل بينما لم يتقبل قربان أخيه.

(١) سورة المائدة الآيات ٢٧ - ٢٩.

(٢) الجذع من الضأن ما بلغ ثمانية أو تسعة. عن المعجم الوسيط.

(٣) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٧. المكتبة التوفيقية، القاهرة

من أجل ذلك دب الحقد والحسد من الأخ على أخيه، وكان ذلك أول معصية على ظهر هذا الكوكب الأرضي. وملاً الحسد قلب الأخ على أخيه فأقدم على جريمة من أبشع الجرائم وهي القتل. يقول الجاحظ في هذا الصدد: «لقد حمله الحسد على غاية القسوة وبلغ به أقصى حدود العقوق، فأنساه من رَحمة جميع الحقوق، إذ ألقى الحجر عليه شادخا، وأصبح نادما صارخا»^(١).

وتلك نهاية مأساوية لتلك القصة التي تحكى ما حدث لأول أخوين على ظهر هذا الكوكب، وكان الحسد هو الذى حرك أحداثها ورسم نهايتها.

وأشخاص القصة اثنان فقط يمثلان نموذجين متباينين؛ فقابيل يمثل نموذج الشر والفساد الذى سيكون فى الأرض بعد ذلك إلى قيام الساعة، ومن ثم فإن قلبه كان تربة صالحة لاستشراء الحسد فيه، وبلغ هذا الحسد مبلغا كبيرا جعله يقدم على قتل أخيه».

وأما هابيل؛ فإنه يمثل نموذج الخير والصلاح والتقوى، فهو يقول لأخيه فيما حكى القرآن: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

(١) رسائل الجاحظ ٣ / ٦.

(٢) سورة المائدة الآية ٢٨.

فكان خيراً من أخيه ، ولذلك ورد فى الخبر «إذا كانت الفتنة فكن كخير ابنى آدم»^(١)

وهكذا رسم الله -جلت قدرته- نموذجين للبشرية فى بداية حياتها على الأرض؛ نموذجاً للخير والسلام والمحبة والذى مثله هابيل بما نزع الله من قلبه الضغينة والحسد. ونموذجاً للشر والحروب والقتل والفتن يمثله قابيل بما كان فى قلبه من غل وحسد وحقد، وذلك لحكمة عالية وقدرة عظيمة، وربما أراد الله - سبحانه- أن يعرف الناس وإلى أن تقوم الساعة أن كل الشرور والآثام والخطايا العظام التى ترتكب فوق سطح هذا الكوكب الأرضى إنما هى بسبب الحسد.

(لقد حمله الحسد على غاية القسوة) تعبير يعبر به الجاحظ على الحالة التى وصل إليها الحاسد الحاقداً؛ إذ جعله الحسد مؤهلاً لارتكاب أفظع الجرائم، (وبلغ به أقصى حدود العقوق). حقا إنه عصيان لربه وعقوق، إذ لم يراقب الله ولم يمتثل أوامره، وعقوق وعصيان لوالده الذى أمرهما أن يقرب كل منهما قربانا، «وأيكما يُقبل قربانه فهو أحق بالفضل»، فلم يمتثل قابيل لأمر الله ولا لأمر أبيه.

(فألقي عليه الحجر شادخا) تنفيس عن بركان الحسد الذى كان يثور فى قلب قابيل من أخيه، وهذه نهايته فى كل زمان ومكان، لقد نفذ فى

(١) تفسير القرطبي مجلد ٣ / ٢١٣.

أخيه ما أملاه عليه غيظة وحقده وحسده وغضبه، لا ما أملاه عليه دينه وضميره ونداء ربه ووصية والده؛ فهو أحق لم يتريث ولم يفكر في عاقبة هذا العمل بدليل قول الله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (٣١) (١) يقول الجاحظ (وأصبح عليه نادما صارخا) إنه تعذيب الضمير الذي يكون بعد اقتراف الذنوب والمعاصي، إنه نداء داخلي في أعماق الضمير جعله الله تعذيبا آخر أشد لأولئك الذين يتبعون شهواتهم، ويرتكبون تلك الجرائم التي أملت عليها عليهم أحقادهم وحسدهم، وهذا يذكرنا بخطبة الشيطان الرجيم يوم القيامة فيما حكاه القرآن الكريم عنه ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢) (٢). فبعد غواية الشيطان للإنسان في الحياة الدنيا، وبعد كل ما يقترب بسببه من شرور وآثام، يأتي يوم القيامة متبرئا مما حدث متبرما منه فلعنة الله عليه إلى يوم الدين.

ولقد ساق الجاحظ هذا المعنى في عبارة جميلة متسقة وأتى فيها من البديع ما جعلها شائعة تستريح لها النفس لتتملى ما بها من معنى،

(١) سورة المائدة الآية ٣١.

(٢) سورة إبراهيم الآية ٢٢.

ففى قوله (لقد حملة الحسد) يبين أن الحسد دابة يركبها الحاسد وتسير به على هواها ، وليس له سلطان عليها. وفى قوله (على غاية القسوة) ما يدل على أن الحسد لا يترك جانباً للخير فى نفس الإنسان وإنما يغلق كل مسالكه.

كما أن الألفاظ: القسوة، العقوق شارخا، صارخا ألفاظ معبرة تماماً عن فكرة الجاحظ التى هو بصدد عرضها. وجاء الجناس الناقص بين الحقوق والعقوق ليضفى على الكلام روعة وبهاء.

والسجع بين كلمتى (شادخا) و(صارخا) جاء ليحدث موسيقى عذبة ونغمة متواترة تهدأ لها النفس.

٢ - حسد أخوة يوسف:

ويمضى الحسد فى أحقاب الزمن، وهو لا يترك فترة من الفترات أو مجتمعا من المجتمعات إلا ويحط ترحاله وينفث سموه طالما وجد تجمعا لذرية آدم؛ تلك الذرية التى بدأت منذ أن فتح التاريخ جفنه على الأرض؛ فبعد أن عرض الجاحظ قضية ولدى آدم وقصتهما، عرض بعدها قضية أخرى للحسد، وقصة أخرى من قصصه؛ وهى أيضا حدثت بين أبناء نبي من أنبياء الله، وفيها تجسيد للحسد وبيان سطوته أو إن شئت فقل على أصحابه، ولا فرق فى ذلك أن يكونوا من سلالة الأنبياء، أم من غيرهم من عامة الناس فهم على أية حال من ذرية آدم.

عرض الجاحظ قصة يوسف مع أخوته عرضاً بارعاً لا يتأتى لأديب مثله، فقد ذكر سبباً للحسد من الأسباب الموجبة له، المحركة لدواعيه المهيجة لكواامن الغيظ والحقْد في النفس، فبدأ هذا الفصل بقوله: (وكيف يصبر من استكن الحسد في قلبه على أمانيه). وكأنه يريد أن يقول إن من أسباب الحسد عدم تحقيق أمانى الحاسد التي يراها عند المحسود. وفي قوله (استكن) ما يشير إلى أنه جعل الحسد نارا ذات جمر مؤجج مستكنة في نفس الحاسد، ثم يمضي الجاحظ فيقول: (ولقد كان أخوة يوسف حلماء، وأجلة علماء، ولدهم الأنبياء، فلم يغفلوا عما قدح في قلوبهم من الحسد ليوسف، حتى أعطوا أباهم الموثيق المؤكدة، والعهود المقلدة، والإيمان المغلظة، أنهم له حافظون، وهو شقيقهم وبضعة منهم. فخالفوا العهود ووثبوا عليه بالظلم والقوة، وألقوه في غاية الجب، وجاءوا على قميصه بدم كذب؛ فبظلمهم يوسف ظلموا أباهم طمعا أن يخلوا لهم وجه أبيهم، وظنوا أن الأيام تسلية، وحبه لهم من بعد غمه يلهيه، فأسالوا عبرته، وأحرقوا قلبه)^(١). وهو في عرضه لهذه القضية إنما يستوحيها ويستوحي أحداثها من القرآن الكريم، فمرة يأتي بالمعنى مقتبسا من القرآن الكريم كما في قوله: «حتى أعطوا أباهم الموثيق المؤكدة والعهود المقلدة والإيمان المغلظة وذلك

(١) رسائل الجاحظ (رسالة الحاسد والمحسود) ٣ / ١٥.

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَكْتُبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنصِحُونَ ﴾ (١١) ﴿١﴾ فهم يؤكدون نصحتهم له بعدة مؤكدات ؛ أولها اسمية الجملة وثانيها إن وثالثها اللام.

ومرة أخرى يأتي الكلام على نمط ما ساق القرآن في هذا الشأن ففي قوله: أنهم له حافظون. يقتضى أثر قول الله - تعالى -: ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفِظُونَ ﴾ (١) ﴿٢﴾ وقول الجاحظ: وألقوه في غيابة الجب. يقتضى قول الله - تعالى -: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ (٣) ﴿٤﴾ وجاء في رسالة الحاسد والمحسود: وجاءوا على قميصه بدم كذب. نصاً من قول الله عز وجل: ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ (٤) ﴿٥﴾ وإن كان الجاحظ لم يفصل بين كلامه وكلام الله في هذا الصدد.

وقصة يوسف مع إخوته ؛ أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولداً ذكراً ، وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام ، بل ولم يكن فيهم نبي غيره على أرجح الروايات ؛ لما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن

(١) سورة يوسف الآية ١١ .

(٢) سورة الحجر الآية ٩ .

(٣) سورة يوسف الآية ١٠ .

(٤) سورة يوسف الآية ١٨ .

يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم^(١). وحدث أن رأى يوسف في نومه رؤيا كفلق الصبح؛ والرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة^(٢) وذلك في صغره؛ كأن أحد عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون له. فهاله ذلك، : ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(٣).

استيقظ يوسف من نومه، وكعادة الصغار الذين يأنسون بأبائهم ويستريحون للحديث معهم ويقصّون لهم كل ما يرون ويسمعون، حكى يوسف الصغير لأبيه يعقوب ما حدث له من أمر الرؤيا، فهال الشيخ هذا الأمر العظيم، وعرف أن ابنه هذا سيكون له شأن كبير؛ فخاف عليه حسد الحاسدين وحقد الحاقدين؛ فأمره ألا يحكى ما حدث معه لأحد بعد ذلك وخاصة إخوته؛ لأن يعقوب عليه السلام عرف أن الكواكب الأحد عشر ما هي إلا إخوته، وأن الشمس أبوه والقمر أمه. ﴿قَالَ يَبْنِي لَا نَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٤) لقد خاف يعقوب على صغيره من الحسد، وما يمكن


(١) انفرد به البخاري فرواه عن عبد الله بن محمد وعبدية عن عبد الصمد بن عبد الوارث ٤ / ٢٢٤.

(٢) هذا الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الرؤيا الصالحة باب ما جاء في تعبير الرؤيا ٤ / ٥٣٦.

(٣) سورة يوسف الآية ٤.

(٤) سورة يوسف الآية ٥.

أن يجره إلى ابنه الحلیم من متاعب لا تطیب لها نفس یوسف، فضلا عما یلاقیه من ویلات من جراء ذلك الداء اللعین. وهذه إشارة واضحة إلى أن الإنسان لابد أن یکتّم أسرارہ وألا یذیعها خوفا علی نفسه من الحسد؛ وقد جاء فی بعض الآثار استعینوا علی قضاء حوائجکم بالکتمان^(١).

لقد رأى یعقوب علامات النجابة ودلائل النبوة والاصطفاء تلوح علی وجه الصغیر، فازداد له حبا حتی ظن بقية الإخوة أنه الأحب والأقرب إلى أبیهم هو وأخ لهم یقال له بنیامین، ومما زاد هذا الشعور من الإخوة ناحیة أخویهم أن بنیامین شقیق یوسف حتی قالوا ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾  ^(٢).

ومن هنا دبّت الغيرة فی نفوسهم، وتحركت دوافع الحسد والحقّد، ورأوا أن یعملوا شیئا، خاصة وأنهم الأكثر عددا، والأکبر سنا من محسودیهم، فأخذوا یفكرون ویدبرون، وذهبت أفکارهم کل مذهب، فمنهم من رأى قتل یوسف لیستریحوا منه للأبد، وینفردوا بحب أبیهم. وآخرون یرون أن القتل جريمة بشعة وأنها أكثر مما یتمنون؛ إنهم لا یریدون إلا غیاب یوسف عن أبیه وانفرادهم بعطفه، ولذا یرون

(١) حدیث استعینوا علی قضاء حوائجکم بالکتمان «تکملته فإن کل ذی نعمة محسود» رواه ابن أبی الدنيا والطبرانی من حدیث معاذ. وانظر تخریج الحافظ العراقی لأحادیث الأحياء علی هامشه ٢٠٦ / ٣.

(٢) سورة یوسف الآیة ٨.

تغيبه عن أبيهم بأى صورة، وهذا ما يكون عليه الحاسد فى كل مكان وزمان، فهو يريد ألا يرى محسوده أمامه بأى شكل من الأشكال، لأن وجوده يقض مضجعه ويحرمه النوم والراحة؛ حيرة وبؤس وشقاء، وتنازع فى كوامن النفس البشرية، وعدم استقرار لها، وكلها دواعى فى نفس الحاسد الحاقد تمزق جسده، وتفتت أعضائه جزاء وفاقا لما يرتكبه فى حق نفسه ودينه. ويحكى القرآن هذا المشهد بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٨ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝٩ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهٖ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۝١٠﴾ (١).

لقد استقر رأى المجتمعين على الرأى القائل بإلقاء المحسود فى غيابة الجب، وهو رأى أكبرهم سنا على أرجح الروايات وهو (روبيل). عند ذلك أخذوا يدبرون أمراً يستطيعون به انتزاع يوسف من أبيه وانفرادهم به، فعرضوا على الشيخ عرضاً طيباً رأوا أنه سيوافق عليه لأن فيه مرحاً وسروراً ليوسف المحبب إليه، فكلموه بلطف، وبلغة من يحرص على يوسف فهو أخوهم ولا بد أن يكونوا له عوناً. ﴿قَالُوا

(١) سورة يوسف الآيات من ٧ - ١٠.

يَتَأَبَّأْنَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴿١﴾ لكن الشيخ - بما أوتي من فطنة الأنبياء وحصافة الشيوخ - لم يسترح لهذا العرض الذي عرضوه، فما كان منه إلا أن قال: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿٢﴾ لكنهم عادوا يطمئنونه مرة أخرى، ويثبتون له أنهم يستطيعون حماية أخيهم، فهو أخوهم وبضعة منهم ومن ثم فإنهم قالوا فيما حكى القرآن عنهم: ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿٣﴾ عند ذلك سلم لهم الشيخ وأخذوا أخاهم؛ وما إن غابوا عن عيني أبيهم حتى جعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال، ثم نفذوا فيه الحكم الذي أصدره عليه من قبل؛ وهو إلقاؤه في غيابة الجب أي في قعره على راعونته^(٤) فأوحى الله إليه أنه لا بد من فرج ومخرج من هذه الشدة التي أنت فيها، ولتكونن فيما بعد - في موقف أنت فيه عزيز وهم دون ذلك فتخبرهم بفعلتهم هذه، وما ارتكبوه في حقك وما أودى به حقدهم

(١) سورة يوسف الآيتان ١١، ١٢.

(٢) سورة يوسف الآية ١٣.

(٣) سورة يوسف الآية ١٤.

(٤) الراعونة/ الصخرة تكون في وسط البئر ليقف عليها الماتح، وهو الذي ينزل

ليملأ الدلاء.

وحسدهم عليك ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٥) ﴿ (١) وهذه نهاية كل محسود؛ العزة والغلبة على حاسده مهما كانت صولته، ومهما كان حسده.

إن هذه القصة هي الدرس العملي لكل حاسد ولكل محسود والقرآن الكريم مستودع القيم العظيمة، والدروس المفيدة، والعبر والعظات. إن سورة يوسف هذه - والتي بدأت بدرس عظيم في بيان آيات القرآن إنما أنزله الله سبحانه وتعالى باللغة العربية الفصيحة هي لغة العرب حتى نتدبر ما فيه من موعظة بليغة ودروس مفيدة ﴿ الرِّبَّكَاءِ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِ ﴿ (٣) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿ (٤) ﴿ (٢) هذه السورة نفسها انتهت بقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١١١) ﴿ (٣).

(١) سورة يوسف الآية ١٥.

(٢) سورة يوسف الآيات من ١ - ٤.

(٣) سورة يوسف الآية ١١١.

إذن فالقصاص القرآني لأخذ الدرس المفيد النافع وتطبيقه في حياتنا العملية، وما أحوجنا- ونحن في هذه الظروف العصيبة من تاريخ أمتنا وديننا- أن نطبق كل ما جاء به القرآن الكريم من قوانين وتشريعات إلهية وأخذ الدروس والعبر من القرآن.

ما أحوجنا أن نجعل القرآن دستوراً لنا نحتكم إليه كالسابقين الذين سادوا هذا الكوكب الأرضي باحتكامهم إلى كتاب ربهم حتى نكون جديرين بقول ربنا جل شأنه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (١).

سورة يوسف إذن درس عملي ونموذج واضح للحاسد وما يحيك من مؤامرات، وما يرتكب من أعمال منافية لآداب العامة وقواعد الدين مع أنهم- وكما قال الجاحظ عن أبناء يعقوب- حلماء وأجلة علماء. وهاتان صفتان جليلتان من المفروض أن ترفعا صاحبهما إلى القمم العالية من أخلاق البشر.

ليس الحلم والعلم فقط من صفات أبناء يعقوب كما ذكر الجاحظ، ولكنه قال عنهم أيضاً: ولدهم الأنبياء. وتلك مكانة لا تتوفر لأحد

(١) سورة النور الآية ٥٥.

إلا بفضل الله ؛ فقد تربوا في بيت النبوة ، وما كان يعقوب نبيا وكفى
 لكف نبي ورسول قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى
 نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
 وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ
 وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۚ ﴾ (١٦٣) (١).

يعقوب إذن نبي ورسول ، وجبريل ينزل إليه بين الحين والحين
 بأوامر السماء وهدايتها ومع ذلك فإن أولاده لم يسلموا من داء الحسد
 الذي كان منهم لأخيهم يوسف.

٢ - حسد اليهود لسيدنا محمد ﷺ

ويمضي الجاحظ في تاريخ الحسد فيعرض - بعد ما سبق ذكره - ما كان
 منه على عهد رسول الله ﷺ وهو حسد اليهود - عليهم اللعائن إلى يوم
 الدين - وحسد المنافقين له ﷺ ، فأما حسد اليهود فقد ذكره الجاحظ بقوله :
 (وما أوتى المحسود من حاسده إلا من قبل فضل الله عنده ونعمه عليه قال
 الله عز وجل : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ
 آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ (٥٤) (٢) (٣).

(١) سورة النساء الآية ١٦٣.

(٢) سورة النساء الآية ٥٤.

(٣) رسائل الجاحظ ٣ / ٤.

والضمير في (يحسدون) يعود إلى اليهود. وأما المقصود بقوله (الناس) في الآية فهو محمد ﷺ، وقيل الرسول ومن معه من المؤمنين. وقد جاز أن يقع لفظ الجمع عليه وهو واحد لأنه اجتمع فيه من خصال الخير ﷺ ما لا يحصل إلا متفرقاً في الجمع العظيم، ومن هذا يقال: فلان أمة وحده؛ أي يقوم مقام أمة قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ (١)(٢).

وأما الفضل الذي تفضل الله به على نبيه - ﷺ - وحسده اليهود من أجله فهو النبوة، وما أعظمه من فضل؛ فالنبوة أعظم المناصب في الدين، وكلما كانت فضيلة الإنسان أتم وأكمل، كان حسد الحاسدين عليه أعظم. ومنطلقاً من هذه النعمة العظيمة أن الله جعل نبيه في مركز القوة والعزة والمنعة من أعدائه، ثم إن اليهود كانوا ينتظرون أن تكون هذه النبوة فيهم وكانوا يتباهون بذلك ويقولون للعرب: سيكون فينا نبي آخر الزمان نُقتلكم به قتل عاد وإرم، فلما نزل النبي من العرب اشتد حقدهم وحنقهم وغيظهم على النبي خاصة، وعلى العرب عامة إلى وقتنا الحاضر وإلى آخر الزمان، وما يقوم به اليهود في فلسطين من طمس المعالم العربية والإسلامية، ومن ارتكاب أبشع الجرائم والانتهاكات من تخريب في الأماكن المقدسة مثل افتتاحهم النفق أسفل بيت المقدس وغيره وما يرتكبون من قتل

(١) سورة النحل الآية ١٢٠.

(٢) انظر مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٥ / ٢٥٢.

وطرد وتشريد وحصار ، تباركه قوى البغى والعدوان كأمریکا وغيرها من عصابات الشر فى العالم ، ما هو إلا جزء من مخططهم فى طمس المعالم الإسلامية والهوية العربية ، وما أملى عليهم ذلك إلا حقدهم وحنقهم وحسدهم للإسلام والعرب وكراهيتهم الشديدة لهم.

ورأى آخر فى سبب حسد اليهود للنبي ﷺ هو كثرة نساؤه وقد اجتمع للرسول فى ذلك الوقت منهن تسع ، واليهود يعلمون أن الله أحل لداود منهن تسعا وتسعين ، واجتمع لسليمان ألف امرأة ثلاثمائة مهرية وسبعمائة سرية^(١). ولا يمكن أن يكون هذا الفضل سابقا أو مقديما على فضل النبوة ، وعلى هذا فإن رأى الأرجح فى نوع الفضل هو الأول ، أو يكون الثانى مجتمعاً مع الأول من فضل الله على نبيه محمد ﷺ ولذلك فإن الله تعالى يقول - بعد ذلك ﷻ - فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾^(٢) أى إن الله تعالى أعطى الكثير من أبناء إبراهيم الفضل العظيم الذى جمعوا به بين النبوة والملك فلا داعى للحسد والحقد.

٤ - حسد المنافقين:-

وأما حسد المنافقين لرسول الله ﷺ فقد ذكره الجاحظ ممثلاً فى شخص زعيمهم وكبيرهم عبد الله بن أبى بن سلول إذ يقول : «وكان

(١) انظر تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) مجلد ٣ / ١٨٢.

(٢) سورة النساء الآية ٥٤.

عبد الله بن أبي قبل نفاقه نسيج وحده لجودة رأيه، وبُعد همّته، ونُبُل شيمته، وانقياد العشيرة له بالرياسة. وما استوجب ذلك إلا بعد ما استجمع له لبُّه وتبين له عقله، وافتقدوا منه جهله، ورأوه لذلك أهلاً لما أطاق له حملاً....» وهو عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين في أول الإسلام؛ وسلول جدته، نُسب إليه؛ وجده مالك بن الحارث بن عبيد بن مالك بن سالم الحبلي بن غنم بن عوف بن الخزرج، وابنه عبد الله بن عبد الله كان من فضلاء الصحابة؛ بدرى قتل يوم اليمامة^(١).

هو إذن رجل من أسرة عريقة، وقد وصفه الجاحظ قبل إصابته بداء الحسد بصفات إذا اجتمعت في شخص تستحوذ له الفضل والهيبة؛ فقال عنه: «نسيج وحده». أى لا نظير له؛ كالثوب الكريم الذى لم ينسج على منواله غيره لدقته، كما أنه يتصف بجودة الرأى وهو ذو همة عالية. وأخلاقه نبيلة فاضلة. فاستحق بهذه الصفات وغيرها أن يكون مؤهلاً للرياسة والسيادة فى قومه، وما كانت له هذه السيادة والرياسة إلا لعلمه وعدم جهله.

هذه هى صفات الرجل قبل المرض الخطير الذى أصيب به وهو الحسد، والذى تمكن فى قلبه واستقر فى جوفه، لما رأى عليه النبى من مكانة عالية، وحب الناس له، وإكرامه بالنبوة والحكمة والدرجة العالية الرفيعة من ربه عز وجل.

(١) جمهرة أنساب العرب ٣٥٤ - ٣٥٥.

ثم إن هذا المرض تسبب له في مرض أشد فتكا وأخطر أثرا، أودى به إلى النفاق وقد وصف الجاحظ ذلك بقوله: فلما بعث الله نبيه ﷺ وقدم المدينة، ورأى هو عز رسول الله ﷺ، شَمَخَ بأنفه، فهدم إسلامه لحسده وأظهر نفاقه. وما صار منافقا حتى كان حسودا، ولا صار حسودا حتى صار حقودا. فحَمَقَ بعد اللب، وجهل بعد العقل، وتبوأ النار بعد الجنة^(١). وهكذا أودى به حسده إلى العاقبة السيئة التي ذكرها الجاحظ بعد ما كان عليه من الصفات الطيبة.

لقد عرض الجاحظ صفات ابن سلول عرضا يليق به قبل حسده، ويتناسب مع مقامه حينئذ؛ فقوله: (نسيج وحده) كناية عن انفراده بالصفات الحسنة. ثم إنه شبهه بالقائد المظفر، وعشيرته جنود منقادون له. وقوله: (وإذعانهم) كناية عن كفاءته وقدرته وهيئته للناس. وقوله: (استجمع له لبه) كناية عن دقة تفكيره وكياسته وعدم إصداره الأحكام إلا بعد دراستها دراسة وافية. وقوله: (لما أطاق له حملا) جعل هذه الأخلاق والصفات التي اتصف بها كأنها حمل ثقیل وأنه أهل لحمل هذه الأمور التي لا يقوى على حملها المهازِيل من الناس.

كما أن هناك موسيقى عذبة جميلة في السجع الذي نشأ نتيجة اتحاد نهايات الكلمات: نفاقه.. حسده.. رأيه.. همته.. شيمته. وكذلك بين

(١) المصدر السابق.

كلمات : السيادة.. الرياسة. ثم يعود مرة أخرى إلى النعمة الأولى التي يحدثها حرف الهاء فى : لبه.. عقله.. جهله. ثم : أهلا.. حملا.. كما أنه استخدم للصفات الحسنة ألفاظا تناسبها مثل : لب.. عقل.. أهل. وجاء التضاد بين لفظي : تبين، افتقدوا. وكذلك بين : عقل، جهل. لإظهار المعنى وتوضيحه.

وأما المترادفات فقد أتى بهما الجاحظ فى هذه العبارة بين انقياد وإذعان وكذلك بين لب وعقل للتوكيد والبيان.

وعندما تحدث عنه بعد نفاقه فإنه أتى بألفاظ تناسب ما أصبح عليه وبما يظهر مكنونة مثل : شَمَخ... هَدَم... حَسَد... نِفَاق... حَسُود... حَقُود... حَمَق... جهل... النار. كما أن قوله : شَمَخ بأنفه كناية عن كبريائه وغروره. وقوله (هدم إسلامه) استعارة جميلة تبين أن الإسلام بناء عظيم ضخّم جعله الحسد يأخذ فى هدمه. وقوله : وأظهر نفاقه كناية على أن النفاق مرض مخفى مستور.

والجاحظ رتب أمراضا خطيرة مترتبة على الحسد ترتيبا طبيعيا منطقيا؛ وذلك فى قوله : وما صار منافقا حتى كان حسودا، ولا صار حسودا حتى صار حقودا. وبذلك يبين الجاحظ أن الحسد هو أساس كل الشرور والآثام والموبقات.

وأما النفاق فإنه مرض خطير، وداء عضال مترتب على الحسد، وتدرج طبيعى له. ولم يظهر هذا المرض فى المجتمع الإسلامى الأول

إلا في المدينة وذلك بعد أن عزَّ الإسلام، وقوى المسلمون وأصبحوا في
مكانة مرموقة من القوة والعزة حتى هابهم عدوهم وأصبح يُعمل لهم
ألف حساب.

علاج الحسد

أثبتنا آنفاً- أن الحسد داء عضال، ومرض خطير من الأمراض الاجتماعية المستعصية. وإذا كنا نقر أنه داء فلا بد له من دواء، وإذا كان هذا المرض له طرفان؛ الحاسد والمحسود، فإن علاجه ينقسم قسمين بحسب طرفي المرض، قسم يخص الحاسد، وقسم يخص المحسود.

فأما ما يخص المحسود، فإن الجاحظ قد رسم له خطوات العلاج، في مثل قوله: «فإذا أحسست- رحمك الله- من صديقك بالحسد، فأقلل ما استطعت من مخالطته، فإنه أعون الأشياء على مسالته، وحصن سرّك منه تسلم من شره وعوائق ضره، وإياك والرغبة في مشاورته، ولا يغرنك خدع مَلِيقه، وبيان ذَلِيقه، فإن ذلك من حبائل نفاقه»^(١).

والجاحظ - بهذا القول- يفترض صدور الحسد من الصديق، وهذا أمر طبيعي، إذ الحسد يمكن أن يأتي من الصديق والقريب والنسيب وكل الملتصقين بالشخص والمتصلين به اتصالاً وثيقاً، وإنما خُصَّ الصديق في هذه العبارة لالتصاقه الشديد بصاحبه ومن ثم فإن الجاحظ - بعد ذلك- يقول: «فأقلل ما استطعت من مخالطته. فإن المخالطة الكثيرة

(١) رسائل الجاحظ (مصدر سابق) ٣ / ١٦.

لا تكون إلا مع الصديق ، ويبين الجاحظ أن عدم المخالطة علاج نافع لوجود المسألة بينه وبين صديقه ، وكأن الحاسد سيشعل - بحسده - حرباً شديدة على محسوده».

وأما الخطوة الثانية ؛ فتتمثل في قول الجاحظ: (وحصن سرك منه تسلم من شره وعوائق ضره). وقوله (حصن) بمعنى شيد حصناً منيعاً يمنع تسرب أسرارك إلى عدوك الحاسد. وهي استعارة جميلة تفيد شدة إحكام ومنع تسرب أى سرّ مهما كان بسيطاً إلى الحاسد، فإنه - على حاله - سيستغل ذلك لهدم محسوده والقضاء عليه ، وكأن الأسرار جنود للإنسان يخدمونه من هجوم أعدائه ، وكأن مستودع الأسرار الإنسان حصناً منيعاً.

والخطوة الثالثة في هذه المرحلة من مراحل العلاج هي التحذير الشديد من الجاحظ للمحسود ؛ ألا يشاور حاسده فى أى أمر من الأمور (وإياك والرغبة فى مشاورته) كأنه لا يحذر من المشورة لكنه يحذر من مجرد الرغبة بمعنى أن تحدث المحسود نفسه أن يشاور حاسده. ثم يبين الجاحظ ألا عيب الحاسد لمحسوده فيقول: (ولا يفرنك خدع مَلَقَه) والخدع - بضم الخاء وفتح الدال - جمع ؛ مفردة خدعه (بالضم). يقال: خدع خدعاً: تغير من حال إلى حال، وخدع فلان تخلق بغير خلقه، وهو خادع الرأى: متلون لا يثبت على رأى^(١).

(١) راجع الوسيط: مادة (خ د ع).

وأما الملق فإنه اللين من الكلام. فالجاحظ يحذر المحسود من كلام حاسده الخلو، وأحاديثه العذبة الجميلة - في الظاهر - بينما هو يخفى غيرها.

(وبيان ذلك) والبيان؛ بمعنى الإيضاح، والذلق، بمعنى الفصاحة، وأيضاً فإن الجاحظ يحذر من أسلوبه العذب وقدرته على البيان والإقناع. فكل هذه الأمور يجب أن يتنبه إليها المحسود من حاسده جيداً. فإن ذلك كله مصادد شيطانية كما يقول عنها أبو عثمان في نهاية الفقرة (فإن ذلك من حبائل نفاقه). ومعنى ذلك أنه جعل الحاسد شيطاناً رجيماً، وأن هذه الأساليب التي يسلكها مع محسوده كلها ما هي إلا مصادد الشيطان الرجيم.

والجاحظ في العبارة السابقة يتجه إلى البديع ليجذب القارئ إلى أسلوبه، ويجعله سهلاً ليناً، بما أضفى عليه من الجمال بالموسيقى العذبة التي نشأت من السجع والجناس في العبارة؛ فالسجع في اتحاد فواصل الكلمات: مخالطته... مسالته، وبين: شره... ضره... مشاورته... ملقه... ذلقه. والجناس الناقص بين: سر، شر. وبين: ملق، ذلق.

ولكى يضمن الجاحظ بُعد المحسود عن حاسده، فإنه يُنفّر من الحاسد تنفيراً تتقزز له نفس المحسود فلا يتصل بالحاسد أبداً وذلك بقوله: «فإذا كان الأمر على هذا فمجاورة الموتى، ومخالطة الزمنى،

والاجتنان بالجدران، ومصر المصران، وأكل القردان، أهون من معاشرته والاتصال بحبله»^(١).

وأبو عثمان يقصد بمجاورة الموتى - كما جاء في مُسْتَهْلَ العبارة - هو الموت معهم والغياب عن وجه الحاسد. أو ربما يقصد السكن بعيداً عن الناس جميعاً بجوار القبور، لأن القبور تكون غالباً بظاهر البلاد. وهذا أقرب إلى مقصد أبي عثمان في العبارة لأنه أضاف مجاورة الموتى إلى مخالطة الزمنى بالواو وليس ب (أو).

والزمنى؛ هم أصحاب الأمراض المزمنة على ما يكون من مخالطتهم من غم ونكد، وذلك لأنهم لا يُحسدون لابتلاء الله لهم بالأمراض المستعصية، فهم مشغولون بأنفسهم وبمرضهم. وأما الاجتنان بالجدران فهو الاحتماء بها والجلوس تحتها بعيداً عن الحاسدين. (ومصر المصران) وفي رواية أخرى (ومص المصران)^(٢) وهى الأمعاء أو الحوايا كما عبر عنها القرآن الكريم ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾^(٣). وما بها من فضلات الطعام وروث الإنسان أو الحيوان.

(١) الرسائل ٣ / ٢٠ - ٢١.

(٢) وانظر هامش الرسائل ٣ / ٢١.

(٣) سورة الأنعام الآية ١٤٦.

(وأكل القردان) بكسر القاف، جمع قَرَاد (بالضم) وهي الحشرة الضارة المعروفة، كل هذه الأمور سالفه الذكر جعلها أبو عثمان أهون من الاتصال بالحاسد ومعاشرته ومصادقته لأنه شخص لا يأتي منه إلا كل شر ونكد.

وقد جاءت العبارة على ثلاثة ألوان من الإيقاع المختلف، وهذا - كما سبق قوله - في نظري للانتباه واليقظة.

فأما الإيقاع الأول فيتمثل في قوله: الموتى... الزمنى بالألف المقصورة في نهاية كل منها.

والإيقاع الثاني متمثل بين الكلمات: الجدران... المصران... القردان، باشتراك الألف والنون بينها، وهو الترصيع.

وأما الإيقاع الثالث والأخير فيتمثل في نهاية الكلمتين: معاشرته، بحبله، وكانت نهاية الجملة لهما، وهي نهاية طبيعية معنى وبديعاً.

وعرض الجاحظ - في نهاية رسالة الحاسد والمحسود - عرضاً آخر وعلاجاً مكرراً في قوله: «وما أرى السلامة إلا في قطع الحاسد، ولا السرور إلا في افتقار وجهه، ولا الراحة إلا في صرم مداراته، ولا الربح إلا في ترك مصافاته»^(١).

(١) الرسائل ٣ / ٢٢ - ٢٣.

وَيَذْكُرُنِي الْجَاحِظُ بِالطَّبِيبِ الْمَسَانِقِ، وَالنَّقْرِيسِ الْمَاشِرِ الَّذِي لَا يَخْتَفِي مِنَ الْأَدْوِيَةِ بِجُرْعَةٍ وَاحِدَةٍ؛ لَكِنَّهُ يَكْرُرُ لَهُ الدَّوَاءُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا مَشْدُودًا يَضْمَنُ اقْتِلَاعَ الْمَرَضِ مِنْ جَسَدِهِ. وَإِذَا كَانَ هَذَا الْكَلَامُ يَصْدُقُ عَلَى الْمَرَضِ الْعَشْوِيَّةِ الَّتِي تَكْشِفُهَا الْمَعَامِلُ وَالْمُخْتَبِرَاتُ وَالتَّحَالِيلُ وَالْأَشْعَةُ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ، فَإِنَّ مَرَضَ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ نَالُ الْحَاسِدِ الْأَشَدِّ حَاجَةً وَأَكْثَرَ إلْحَاحًا إِلَى تَكَرُّرِ الْجُرْعَاتِ الدَّوَانِيَّةِ حَتَّى يَقْتُلَعَ مِنَ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، أَوْ حَتَّى يَضْمَنَ الْبَعْدَ عَنْ ذَلِكَ الشَّرَّ الْمُسْتَطِيرَّ وَهُوَ الْحَاسِدُ. وَهَذَا مَا فَعَلَهُ أَبُو عَثْمَانَ، وَكَأَنَّ هَذِهِ الْفَقْرَةَ هِيَ جُرْعَةُ الْخَبَرِ، مِنَ الْعِلَاجِ، وَإِنْ تَأَنَّتْ تَحْدِلُ مَعَانِي الْجُرْعَاتِ الْمَسَابِقَةِ وَهَذِهِ مَبِيزَةٌ فِي نَظَرِي - مِنْ مُمَيِّزَاتِ التَّكَرُّارِ فِي أَسْلُوبِ الْجَاحِظِ الَّذِي يَقْتَسِمُ بِهِ أَسْلُوبُهُ؛ فَهُوَ فِي الْعِبَارَةِ يَدْعُو إِلَى قَطْعِ الْحَاسِدِ، وَافْتِقَادِ وَجْهِهِ، وَهُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ تَكَرُّارٌ لِلْمَعْنَى، (وَلَا الرَّاحَةُ إِلَّا فِي صَرْمِ مَدَارَاتِهِ) وَالصَّرْمُ بِمَعْنَى الْقَطْعِ، وَهُوَ تَكَرُّارٌ آخَرٌ وَتَرَادُفٌ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ؛ لِتَأْكِيدِ الْمَعْنَى وَتَثْبِيتِ الْعِلَاجِ، «وَلَا الرِّبْحَ إِلَّا فِي تَرْكِ مَصَافَاتِهِ».

وَعَلَى طَرِيقَةِ الْأَدَبَاءِ الَّذِينَ يُطَبِّقُونَ مَرْضَاهُمْ بِتِمَامِ الشِّفَاءِ وَالسَّلَامَةِ مِنَ الدَّاءِ الَّذِي يَعْانونُ مِنْهُ إِذَا سَارُوا حَسَبَ التَّعْلِيمَاتِ، وَأَخَذُوا الدَّوَاءَ بِانْتِظَامٍ فَيَقُولُ: «فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَكُلْ هَنِيئًا مَرِيًا، وَنَمْ رَضِيًا، وَعَشْ فِي الْمَرْوَرِ مَلِيًا»^(١).

(١) المصدر السابق ٣ - ٢٣.

فهيّا هو ذا يبدأ العبارة بقوله : (فإذا فعلت ذلك) أى إذا سرت
حسب التعليمات ، واتبعت الإرشادات التى أرشدناك إليها . (فكل هنيئا
مريّا) والطعام النهى ؛ فهو الطعام السائغ فى أكله ، أى الذى يأكله آكله
بشهوة ورغبة . وأما المرئى من الطعام ؛ فإنه النافع الذى ينتفع الجسم
بمكوناته ، ولا يتسبب عنه أو منه أذى للإنسان ، ويمكن أن يكون الطعام
هنيئا وليس مريّا ؛ أى إنه شهى فى أكله لكنه يجلب التعب والمرض
للإنسان ، ويمكن أن يكون الطعام مريّا وليس هنيئا ، أى إن الإنسان يأكله
بغير شهوة ، أو رغبة لكنه يفيد الجسم ، كما يُجبر المرضى على أكل
مارق من الطعام ليقوم به أوّده .

لكن الجاحظ يعد المحسودين بأن طعامهم سوف يكون هنيئا ومريّا ،
إذا هم ساروا على العلاج الصحيح كما رسمه ، ثم هو يعدّهم - أيضا -
بالنوم الهادئ الراضى الخالى من الهموم والمتاعب ، وحتى إذا استيقظ
فإنه يعيش يومه فى سعادة وراحة بال .

ثم إن الجاحظ كان له رأيان فى موقف المحسود من حاسده ، وكلاهما
نقله عن العلماء وأصحاب رأى فى هذا الشأن .

فمنهم من يرى إعانة الدهر على الحاسد ، إن إن الحاسد لم يُجبر
على موقفه هذا ، وبالتالي فإنه لا يستحق الرحمة والعطف والمساعدة ،
وما يلاقيه هو جزاء الله العادل له ؛ وفى هذا الصدد يعقد الجاحظ مقارنة
بين الحاسد والعدو ، ويبين أن الأخير أخف حدة ، وأقل غيظا وحنقا

من الأول، لأنه إذا كانت عداوته بسبب نعمة فإنه يرضى وتزول تلك العداوة إذا أعطى منها، بخلاف الحاسد، فيقول: «وأعداء النعمة إذا شوركوا فيها ونالوا، تزحزحوا عن عداوتها، وكانوا من أهلها المحامين عنها والدافعين عن حماها»^(١).

وأما الحاسد فإنه غير ذلك؛ إذ أخبر عنه الجاحظ بقوله: «وحساد النعمة إن أعطوا منها وتبجحوا فيها، ازدادوا عليها غيظاً وبها إغراء»^(٢).

لكن الجاحظ نقل قولاً للمغيرة بن شعبة - بعد النص الذي أوردناه له يقول فيه: ومن هذا قال المغيرة بن شعبة: (النعمة التي يعاش فيها نعمة محروسة ليس عليها ثائر يغتالها، ولا ذو حسد يحتال في غيرها.) فهو هنا يذكر ذا الحسد، ويدعو إلى مشاركته في النعمة بينما يذكر بعد ذلك أن الحاسد يزداد غيظاً على نعمة يشترك فيها بالعطاء من صاحبها. ثم هو يذكر بعد ذلك أن الحسد باق لا يزول مهما أعطى صاحبه، ومهما بذل له المحسود من عطاء. يقول: (والعداوة تخلق وتُمَل، والحسد غصن جديد، حرم أو أعطى لا يبيد)، ثم يستخدم نظريات المنطق في هذا الصدد فيقول: (فكل حاسد عدو، وليس كل عدو حاسد)، وهو - بهذا - يجعل العداوة التي سببها الحسد عداوة ضارية

(١) نفس المصدر ١ / ٣٤٥.

(٢) نفسه ١ - ٣٤٦.

عاتية باقية، لا تزول لأى سبب من الأسباب، بخلاف العداوة الأخرى فإنها تزول بزوال سببها. وضرب على ذلك مثلاً بعداوة اليهود لرسول الله - ﷺ - بقوله: (وإنما حمل اليهود على الكفر بمحمد - ﷺ - وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم أنه نبي صادق.... الحسد....) (١).

وكان الجاحظ - فيما سبق - يرى ألا تأخذ الإنسان رافة بحاسد، وألا يُعطى المحسود من ماله شيئاً لحاسده، بل وربما يمكن أن يعطى المحسود عدوه ليزيل عداوته ولا حاسده. وهو - بهذا - يدعو إلى أن نقف من الحاسد موقف العداء دائماً، وأن نساعد الدهر على صفعه، وقد نقل عن مصعب بن الزبير أنه قال: (إذا رأيت يد الدهر قد لَطَمَتْ عدوك فبادر برجلك فإن سلم من الدهر لم يسلم منك) (٢).

أما رأى الآخر من الآراء التى قيلت فى علاج الحاسد، فهو الرفق به والحلم، والأخذ بيده وإرضائه، ومقابلة إساءته بالإحسان والعفو. وفى هذا الصدد نقل الجاحظ موقفاً كريماً من مواقف الحلم التى أثنى عليها رسول الله - ﷺ -، وهو حلم مع الجميع لا يقتصر على عدو أو حاسد أو غير ذلك. قال الجاحظ: «حدثنى نوح بن أحمد عن أبيه عن ابن عباس قال: جاء النابغة الجعدي إلى رسول الله - ﷺ -، فقال هل معك من الشعر ما عفا الله عنه؟ قال: نعم. قال أنشدنى منه. فأنشده:

(١) الرسائل. مصدر سابق.

(٢) نفس المصدر السابق ١ / ٣٥٩.

وإنا لقوم ما نعوّد خيلنا
 إذا ما التقينا أن تحيّد وتنفسرا
 وننكر يوم الروح ألوان خيلنا
 من الطعن حتى تحسب الجون أشقرا
 وليس بمعروف لنا أن نردها
 صحاحاً ولا مستنكراً أن تُعقرا
 بلغنا السماء مجدّنا وسناؤنا
 وإنا لنبغى فوق ذلك مظهرنا
 فقال رسول الله - ﷺ -: إلى أين يا أبا ليلي؟ فقال: إلى الجنة. فقال
 رسول الله - ﷺ -: «إلى الجنة إن شاء الله».

ثم رجع في قصيدته فقال:

ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له حلّيم إذا ما أورد الأمر أصدرنا
 ولا خير في حلمٍ إذا لم تكن له بوار تحمى صفوه أن يكسدا
 فقال رسول الله - ﷺ -: «لا فض الله فاك». قال فأنت عليه عشرون ومائة
 سنة، كلما سقطت له سنٌ اثغرت أخرى مكانها؛ لدعوة رسول الله - ﷺ -^(١).

معنى هذا أن الرسول - ﷺ - أعجب بكلام النابغة الجعدي لما فيه
 من دعوة إلى حلم يصد غوائل الجهل، ويحمي صاحبه من الوقوع في
 مخاطره. وهي دعوة عامة إلى الحلم مع الحاسد وغيره.

(١) المصدر نفسه ١ - ٣٦٤.

ومن يَرُون كسر جبر العدو، وإقالة عثرته، ونصرته عند وثوب
 الدهر عليه، هم الذين يتخلقون بالأخلاق الفاضلة، ويقابلون السيئة
 من الحاسد العدو بالحسنة من المحسود فيكون ذلك دليلاً على علو
 منزلتهم وسمو خلقهم وقوة عقيدتهم، وهم ينتظرون من الله الثواب،
 واضعين نصب أعينهم قول ربهم: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
 وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ
 السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۖ﴾ (٢٢) جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ
 آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ﴾ (٢٣)
 سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ۖ﴾ (٢٤) ﴿^(١) فهذا هو الخير العظيم
 والنفع العميم لهم ولن صلح من أجليهم وذويهم، وأصولهم وفروعهم؛
 عاقبة حسنة طيبة، وجنات النعيم ينعمون بها، والملائكة يحوطونهم
 من كل مكان ويغفرونهم بالسلام والاحترام.

ولقد استشهد الجاحظ، بعدة مواقف كريمة لتأييد رأى من يرى
 كسر جبر الحاسد، وعدم إعانة الدهر عليه؛ منها ما رواه هو عن ابن
 عبد الحميد قال: قال شبيرمة^(٢): كانت الحرب يوم صفين بين العرب

(١) سورة الرعد الآيات ٢٢ - ٢٤.

(٢) هو عبد الله بن شبيرمة بن حسان بن المنذر بن ضرار بن عمرو الضبي أبو شبيرمة
 الكوفى روى عن أنس وأبى الطفيل وعبد الله بن شداد بن الهاد وإبراهيم النخعي
 وغيرهم. ولد سنة ٧٢هـ ومات سنة ١٤٤هـ كان شاعراً وفقهاً قليل الحديث، وذكره

محضة لا شوب فيها، فكانت محاربتهم كداماً واعتناقاً، وكانوا إذا مروا برجل جريح كانوا يقولون: خذله قومه فانصروه، وألقاه دهره بمضيعة فردّوه إلى أهله^(١).

ومما يلحظ في الأمثلة التي أوردتها الجاحظ عن العفو عن الحاسد أنها كلها لم يكن فيها حاسد، وإنما مفتخر بنفسه، أو عدو لغيره، وقد عرفنا أن العداوة أخف وطأة من الحسد؛ فما أوردته مما كان بين النابغة الجعدي ورسول الله - ﷺ - ودعوة النابغة إلى الحلم ورضا رسول الله بذلك ودعائه له، لم يكن فيه موقف حسد، وإنما هو فخر من النابغة بنفسه وقومه. وما أوردته عن العفو والصفح يوم صفين لم يكن عن حسد، وإنما كان عن عداوة بين فريق وآخر، التقيا في ميدان القتال. وإنّ جُلّ ما أوردته الجاحظ عن العفو والحلم كان في مواقف لم يكن فيها حسد كما ذكرت إلا ما أوردته من بيتي شعر كان الزبير كثيراً ما يتمثل بهما: ^(٢)

وإني لأعدائي على المقت والقلبي بنى العم منهم كاشح وحسود

= ابن حبان في الثقات، وقال عنه العجلي كان قاضياً على السواد لأبي جعفر. وكان عفيفاً حازماً عاقلاً. تهذيب التهذيب لابن حجر ج ٥ / ٢٢٠ - ٢٢١. دار الفكر. ط. أولى سنة ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

(١) رسائل الجاحظ ١ / ٣٦٠ - ٣٦١.

(٢) تاريخ الإسلام. شمس الدين الذهبي ١ / ٣٧٧ دار الغد العربي. والحديث في

صحيح البخاري ٥ / ١٤٣ دار الشعب.

أَذُبُّ وَأَرْمَى بِالْحَصَى مِنْ وَرَائِهِمْ وَأَبْدَأُ بِالْحَسَنَى لِيَهُمْ وَأَعْسُودُ
وَالْكَاشِحُ هُوَ الْعَدُوُّ الْمُبْغِضُ، وَالْحَسُودُ مَعْرُوفٌ.

ويلحظ على هذه الأمثلة والاستشهادات التي ذكرها الجاحظ؛ سواء
على إعانة الدهر على الحاسد، أم على مواساته وكسر جبره، أنه لم
يعلق عليها ولم يذكر رأيه ولا أى الرايين يوافق، ولكنه اكتفى بسرد
تلك الآراء والأمثلة فقط.

وفى تصورى أن الدعوة إلى التسامح والحلم إنما هى دعوة عامة لكل
الناس، وهى من أخلاق القرآن الكريم والدين، ومن أخلاق رسول الله - ﷺ،
أما الحاسد فإنه لا يصلح معه معروف، وسيتماذى فى حسده كلما قدمت
له يد العون والإحسان، و دليل على ذلك موقف الرسول الكريم من يهود
الديانة الذين ناصبوه العداء حسداً وحقداً، فلما أمكنه الله منهم طلب أن
يختاروا حكماً محايداً يصدر حكماً عليهم بما نقضوا العهود والمواثيق،
وبما كادوا لرسول الله - ﷺ فاختروا سعد بن معاذ. «فأرسل إليه رسول
الله - ﷺ فأتاه على حمار. فلما دنا قريباً من المسجد قال رسول الله - ﷺ -
قوموا إلى سيدكم، أو إلى خيركم فقال: إن هؤلاء قد نزلوا على حكمك،
فقال: نقتل مقاتليهم، ونسبى ذراريهم. فقال رسول الله - ﷺ -: لقد
حكمت عليهم بحكم الله. وربما قال: بحكم الملك». متفق عليه^(١).

(١) تاريخ الإسلام. شمس الدين الذهبي ٣٧٧ / ١ دار الغد العربى والحديث فى
صحيح البخارى ١٤٣ / ٥.

فلو كان العفو وارداً مع الحاسد لعفا الرسول الكريم عن اليهود وهو أهل العفو والتسامح.

وأما موقفه مع أعدائه من قريش الذين أخرجوه من مكة وعادوه وقاطعوه، فإنه يختلف عن ذلك تماماً؛ إذ إنه لما عاد الرسول الكريم إلى مكة فاتحاً في العام الثامن الهجري، وأمكنه الله من قريش أعدائه خطاب فيهم قائلاً: ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء^(١). وبذلك عفا عنهم، لأنهم أعداؤه وليسوا حساداً له.

لا هوادة— إذن— مع الحاسد، ولا رفق به لأنه لا يُصلحه الرفق ولا العفو، ولا يثنيه ذلك عن حسده وكيدته ومكره.

ومن علاج الحسد كتمان النعمة التي أنعم الله بها على الإنسان، وعدم إظهارها إذا كان ذلك ممكناً، لأن في إظهارها ما يعرض هذه النعمة للحساد، وقد قال رسول الله ﷺ: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود».

وفي أدب الجاحظ ما يشير إلى ذلك؛ فقد سلك مع حساده إزاء ما أنعم الله عليه بنعمة التأليف والبيان فيقول: (ولربما خرج الكتاب من تحت يدي محصفاً كأنه متن حجر أملس، بمعان لطيفة محكمة،

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٧٥٦ دار الغد العربي ط. أولى سنة

١٤١١هـ، ١٩٩١م.

والفاظ شريفة فصيحة ، فأخاف عليه طعن الحاسدين إن أنا نسبته
لنفسى ، وأحسد عليه من أهُمُّ بنسبته إليه لجودة نظامه ، وحسن
كلامه ، فأظهره مبهماً غُفلاً فى أعراض أصول الكتب التى لا يُعرف
وضاعها ، فينهالون عليه انهيار الرمل ، ويستبقون إلى قراءته سباق
الخيال إلى غايتها^(١).

فهو لا يضع اسمه على المؤلف الذى يؤلفه ويخاف عليه حسد
الحساد ، وهذا لون من ألوان الكتمان للنعمة التى أنعم الله بها عليه
(فأظهره مبهماً غُفلاً فى أعراض أصول الكتب التى لا يعرف وضاعها).
وقد شبه انهيار الناس على قراءة الكتاب. كانهيار الرمل من أعلى إلى
أسفل ، كما شبه استباقهم إلى مؤلفه كسباق الخيل يوم الحلبة إلى غايتها
وهى صورة وضحت مدى اهتمام الناس بكتابه المتقن المحصف.
ويدخل فى كتمان النعمة- أيضاً- الاحتراز من الحاسد بستر محاسن
من يخاف عليه العين ؛ فقد نقل ابن القيم ما ذكره البغوى فى كتاب
شرح السنة أن عثمان رضي الله عنه رأى صبياً مليحاً ، فقال : «دسموا نونته لثلاث
تصبيه العين ، ثم قال فى تفسيره ، ومعنى دسموا نونته أى سودوا
نونته ، والنونة ؛ النقرة التى تكون فى ذقن الصبى الصغير»^(٢).

(١) رسائل الجاحظ: ١ / ٣٥١.

(٢) زاد المعاد لابن القيم ٣ / ١٢٠.

وربما كانت وصية الرسول الكريم بالإحسان إلى الجار ، وإهدائه من كل ما يُدخله الإنسان على أهله أو إخفاء ذلك عنه وعن عياله ، ربما كان ذلك لنفس السبب.

وأخيراً فإن العلاج الكافي الشافي من الحسد يكمن فيما أوصى به الإسلام ، وحث عليه وأمرنا أن نتعالج به إذا كان الحسد قد فرض سطوته ، أو نتحصن به لنلا يقترب منا ، وهو علاج نستقيه من مصدرى الشرع الشريف ؛ القرآن الكريم ، وسنة رسول الله ﷺ.

وقد أشار الجاحظ إلى هذا العلاج بقوله : (.... فما هذا العناء ! كأنك لم تقرأ المعوذة ، ولم تسمع مخاطبة نبيه ﷺ ، فى التقديم إليه بالاستعاذة من شر حاسدٍ إذا حسد.)^(١).

وهو- هنا- يشير إلى أمرٍ معروف هو العلاج بالقرآن فى كل من المعطوف والمعطوف عليه ، وهو قراءة المعوذة حتى إنه قد ختم هذه العبارة بما ختمت به المعوذة فى قوله : (ومن شر حاسدٍ إذا حسد). وقد روى النسائي عن عقبة بن عامر قال : أتيت النبی ﷺ وهو راكب ، فوضعت يدي على قدمه ، فقلت : أقرئنى سورة هود أقرئنى سورة يوسف . فقال لى : «ولن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من : «قل أعوذ برب الفلق»^(٢).

(١) المصدر السابق ٣ / ١٩ .

(٢) سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطى : كتاب الاستعاذة ٨ / ٢٥٠ . دار

الحديث- القاهرة سنة ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .

وروى النسائي عن عبد الله قال: أصابنا طش^(١) وظلمة، فانظرنا رسول الله ﷺ يخرج. ثم ذكر كلاماً معناه: فخرج رسول الله ﷺ فقال: «قل». فقلت: ما أقول؟ قال: «قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثا يكفك كل شيء»^(٢).

وقد ثبت في صحيح مسلم^(٣) أن جبريل رقى رسول الله ﷺ بقوله «باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك باسم الله أرقيك». فهذه رقية جبريل لرسول الله ﷺ من النفس أو العين أو الحسد وكلها بمعنى واحد، وهي ليست رقية لرسول الله فحسب، ولكنها تصلح وتصح لكل من يقرأها وهي شافية بإذن الله. كما ثبت عنه ﷺ أنه كان يتعوذ بكلمات الله من كل هذه الأمراض، نحو قوله: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق. وقوله ﷺ أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة^(٤) ومن كل عين لامة^(٥)»^(٦).

(١) الطش: المطر، ويقال طشت السماء؛ أمطرت مطراً ضعيفاً.

(٢) المصدر السابق.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٤ / ١٧٠.

(٤) الهامة: كل ذي سم يقتل سمه. (الوسيط: هـ. م. م).

(٥) اللامة: العين التي تصيب بسوء. وكل ما يخاف من فزع أو شر أو مس

(الوسيط. مادة ل. م. م).

(٦) زاد المعاد لابن القيم: ٣ / ١١٨.

ونذكر ابن القيم - رحمه الله - أن من الرُّقى ما يرد العين فقد أورد ما ذكر عن أبي عبد الله التياحي أنه كان في بعض أسفاره للحج أو الغزو على ناقة فارهة، وكان في الرفقة رجل عائن، فلما نظر إلى شيء إلا أتلفه، فقبل لأبي عبد الله حفظ ناقتك من العائن، فقال: ليس له إلى ناقتي سبيل. فأخبر العائن بقوله، فتحين غيبة أبي عبد الله فجاء إلى رحله فنظر إلى الناقة فاضطربت وسقطت. فجاء أبو عبد الله فأخبر أن العائن قد عانها، وهي كما ترى. فقال: دلوني عليه. فدل، فوقف عليه وقال: بسم الله، حبس حابس، وحجر يابس، وشهاب قابس، رددت عين العائن عليه وعلى أحب الناس إليه، فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير» فخرجت حدقتا العائن، وقامت الناقة لا بأس بها^(١).

إن كل ما ورد من نصوص سابقة في علاج الحسد، إما نصوص شرعية وردت في القرآن الكريم أو السنة المطهرة وإما نصوص نقلية؛ تناقلها الناس عبر العصور الزمنية بناءً عن خبرات وتجارب.

فأما ما ورد عن الشرع من نصوص قرآنية أو نبوية في علاج الحسد فهو حقيقي ومصدق لا يتطرق إليك شك، ومن ينكره فقد أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، وهو علاج ناجح للحسد نافع شاف للمحسود إن شاء الله تعالى.

(١) نفس المصدر: ٣ / ١٢٠.

وأما ما ورد في علاج الحسد من نصوص أخرى قلنا أن نصدق بها
أو نكذب إلا ما كان عن تجربة فلا يتطرق إليه شك لصاحب التجربة
نفسه، وما عداه فدوقنا منه كما وضحت مهما كان مصدره.

والله أعلى وأعلم وهو من وراء القصد.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله أولاً وآخراً .

مظاهر الحسد وظواهره على الحاسد

مظهر؛ وهو الصورة التي يبدو عليها الشيء. وظواهر؛
مفردها مفردها: ظاهر وهو ما يبدو من الشيء في مقابل ما هو عليه
في ذاته^(١).

فأما الأولى فهي أمور تكمن داخل نفس الحاسد الشريرة، وأما الثانية
فإنها علامات تظهر على وجه الحاسد، وأعمال تقوم بها جوارحه تكون
موجهة من الداخل نتيجة تأثير الحسد في داخله.

وقد استطاع الجاحظ ببراعة فائقة، ومهارة عالية، أن ينفذ داخل
نفس الحاسد، ويتعمق فيها؛ فيوضح كُنْهها ويبين ما تنطوي عليه من
خبث ودناءة، ثم يخرج منها وقد حقق ما كان يصبو إليه. ومن ثم فإنه
يصف مظاهر الحسد وظواهره فيقول: وما لقيت حاسداً قط إلا تبين لك
مكنونه بتغير لونه، وتخوُّص عينه، وإخفاء سلامه، والإقبال على
غيرك، والإعراض عنك، والاستثقال لحديثك، والخلاف لرأيك^(٢).

وكأنه يرى علامات على الحاسد لا تخفى على أحد قط؛ لأنها
بارزة. واضحة تنمُّ عن داخله؛ وأولى هذه العلامات الظاهرة؛ تغير

(١) راجع: المعجم الوسيط- مادة (هـ- و).

(٢) الرسائل ٣ / ٨ - ٩.

اللون، فأما إلى الحمرة فلا؛ لأن تغير لون الوجه إلى الحمرة يدل على الخجل والحياء، وهما صفتان مفقودتان عنده. إذن فاللون الذي يناسبه هو الصفرة، ونحن نرى - حقا - هذا اللون دائما يشوب وجه الحاسد ينم عما بداخله من غل وحقد.

والصفة الثانية التي خرج الجاحظ بها من أعماق نفس الحاسد هي تخوُّص العينين؛ يقال خَوْصٌ خَوْصاً: غارت عينه وضافت. وخوص؛ كانت إحدى عينيه أصغر من الأخرى؛ فهو أخوص، وهي خوصاء. ومن ظواهر الحسد غُورٌ وضيق عين الحاسد؛ وهي صفة لازمة له، ونتيجة طبيعية لما يثور في داخله من بركان، وما يتأجج في نفسه من نيران. ولا يستطيع الحاسد - مهما أوتى من قوة - أن يخفى مظاهر حسده، ومن ثم فإنه يُسلم على محسوده بطريقة ملفقة تدعو إلى الاشمئزاز؛ تبين توجهه ناحيته وهو ما نبه إليه الجاحظ بقوله: «واخفاء سلامه».

كما أن سلطان الحسد عند جامع وقهره عليه غالب، وأثره قوى حتى إنه ليسطيع أن يغير اتجاهه؛ فيشيع بوجهه بعيداً عن محسوده، متوجهاً به إلى شخص آخر. كما أن نفسه السقيمة توجّه سمعه وقلبه بعيداً؛ فيستثقلان حديث المحسود، وتوجّه عقله فيخالف الحاسد محسوده في الرأي.

كل هذه المعانى جاء بها الجاحظ في أسلوب أدبى رفيع، وقالب فنى غاية فى الدقة والمهارة، وموسيقى عذبة رقيقة حققها السجع بين

الكلمات: مكنونة.. لونه.. عينه.. سلامه.. وبين الكلمات: غيرك..
عنك.. حديثك.. رأيك.

وجاءت المقابلة بين.. الإقبال على غيرك.. والإعراض عنك. في
موضعها لتبين حال الحاسد، وما عليه من تناقض واضطراب داخلي.
وفي موضع آخر من (رسالة الحاسد والمحسود)^(١) يبين مدى اضطراب
حال الحاسد، وتقلب أموره في قوله: إنه لا يأتيك ولكن يناديك، ولا
يحاكيك ولكن يوازيك، أحسن ما تكون عنده حالاً، أقل ما تكون مالا،
وأكثر ما تكون عيالاً، وأعظم ما تكون ضلالاً. وأفرح ما يكون بك، أقرب
ما تكون بالمصيبة عهداً، وأبعد ما تكون من الناس حمداً.

وهكذا يرسم الجاحظ علامات بارزة وقسمات واضحة على وجه
الحاسد في كل حال من أحوال المحسود تمثل الاضطراب والتناقض،
ومدى تَوَقُّد قلبه غيظاً وكمداً من سراء المحسود، وسعادته وسروره
في ضراء محسوده. وقد رسم هذه اللوحة المعبرة على وجه الحاسد
بالألفاظ المعبرة والصُّور الفنية البارعة، والموسيقى العذبة، التي حدثت
من السجع والتناسق، وكان لها دور في كسر حدة الجفاف العلمي
وجعلها تبعث في النفس النشوة والسرور مع أن الحديث عن أشقى
خلق الله وهو الحاسد.

(١) المصدر السابق ٣-٢٠.

ثم إنه يعرض- في أسلوب أدبي رائع- حال الحاسد إزاء أنواع مختلفة من المحسودين ويبين- مع كل نوع- ما يظهر على الحاسد من علامات، وما يفعله من تصرفات قولية أو فعلية تبين حقيقته، وتكشف طويته؛ وأول الأنواع الذين عرض لهم هو المحسود الغنى؛ وذلك لأن الغنى من أظهر النعم التي تتعرض للحسد، ويكون وقع حسدها شديداً خاصة إذا كان الحاسد في فقر وضيق فيقول: «ومن شأن الحاسد إن كان المحسود غنياً أن يوبخه على المال فيقول: جمعه حراماً، ومنعه أثاماً، وألب عليه محاويج^(١) أقاربه فتركهم له خصماء، وأعانهم في الباطن وحمل المحسود على قطيعهم في الظاهر وقال له: لقد كفروا معروفاً، وأظهروا في الناس ذمك، فليس أمثالهم يوصلون، فإنهم لا يشكرون. وإن وجد له خصماً أعان عليه ظلماً، وإن كان ممن يعاشره غشاً، أو تفضل عليه بمعروف كفره، أو دعاه إلى نصر خذله، وإن حضر مدحه ذمّه، وإن سئل عنه همزه، وإن كانت عنده شهادة كتمها، وإن كانت منه إليه زلة عظمتها، وقال إنه يحب أن يُعاد ولا يعود ويرى عليه العقود).

وتفصيل وافٍ لحال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله بنعمة المال، التي هي من النعم العظيمة؛ فبه تقوم الحياة وعلى متنه تسير.

(١) المحاويج من الأقارب؛ المحتاجون منهم.

فى هذه الفقرة، يتناول الجاحظ موقف الحاسد بترتيب دقيق، فينصبُ اهتمامه- أولاً- على مصدر المال إذ يدعى، أن هذا المال جمعه المحسود من الحرام، وهو- بهذا- يلجأ إلى الدين باعتباره أشد تأثيراً من غيره فى قلوب الناس، فإذا أقنع العامة أن هذا المحسود يرتكب المحرمات، ولا يأتبه بأوامر الدين، استطاع أن يوغر الصدور منه، ويوجد العداوة تجاهه فقال عنه (جمعه حراماً).

ليس هذا فحسب، ولكن بجانب المصدر غير الشرعى للمال، إلا إنه يدعى أنه (منعه آثاماً) أى لم يتصدق منه على الفقراء والمحتاجين والمعوزين آثماً وجُزماً. وبذلك يستطيع أن يوغر- أيضاً- قلوب الفقراء بالذات تجاه المحسود فيكرهونه ويقفون منه موقف العداء. كما أنه لم يكتف بالفقراء عامة حتى لا تتوه كراهيته وسط الجسم الغفير منهم، ولكنه عمد إلى فقراء جلدته ومحتاجى أقاربه فأوغر صدورهم ليضمن مقاطعتهم له (وألب عليه محاويج أقاربه فتركهم له خصماء...).

وهو متأرجح بين حالين (وأعانهم فى الباطن وحمل المحسود على قطيعتهم فى الظاهر) فهو مرة مع أقارب المحسود يؤلبهم ضده وكأنه معهم يأسى لحالهم ويحدب عليهم، لكنه لا يدوم على هذا الحال فسرعان ما ينقلب حاله ويتغير اتجاهه فيعمد إلى الغنى يحثه على محتاجى أقاربه، ليثير حفيظته تجاههم، ويحملة ذلك على مقاطعتهم.

إنه متقلب متأرجح ليس له حال ثابتة ولا حياة مستقرة مادامت نار الحسد موجهة في صدره، وألسنتها تشب في جوفه.

وحبائله في ذلك متعددة كما يذكر الجاحظ: (لقد كفروا معروفك، وأظهروا في الناس ذمك، فليس أمثالهم يوصلون، فإنهم لا يشكرون). وعلى الرغم من ذلك كله، وعلى كل هذه النصائح التي يقدمها للمحسود وظهوره بمظهر المشفق عليه، إلا أن نفسه قلقة مضطربة يحاول أن يوقع محسوده في عثرات متتالية، لا يكاد يفيق من واحدة حتى ينكب على وجهه في الأخرى فيقول الجاحظ: (وإن وجد له خصماً أعانه عليه ظلاً) فهو منافق يظهر لمحسوده خلاف ما يبطن، فضلاً عما يوقعه عليه من ظلم.

وهو غير مؤتمن على نصيحة أو استشارة لمحسوده لأنه لا يخلص له نصحاً، ولا يحسن له مشورة.. وإن كان ممن يعاشره فاستشاره غشه. وهو منكر للمعروف والجميل، لا يعترف بنعمة يسديها إليه محسوده.. أو تفضل عليه بمعروف كفره.

ويجب أن يعرف المحسود حاسده وينتبه إليه جيداً، ولا يعتمد عليه في أي أمر من الأمور مهما كان لأنه سيخذله لا محالة، كما يقول الجاحظ: أو دعاه إلى نصر خذله.

وقد استخدم الجاحظ لإبراز تلك المعاني، الألفاظ المعبرة الدالة عليها، كما أنه - كعادته - استخدم البديع أبدع استخدام وأروعه ليظهر

به نفس الحاسد وما عليه من قلق واضطراب وتناقض مثل الطباقي الذي تحقق بين الباطن، الظاهر...، كفروا، أظهروا...، نصر، خذله. مدح، ثم في قوله: وإن حضر مدحه ذمة. وشهادة.. كتمها، وأما قوله: ويرى عليه العقود؛ فإنه كناية عن الملك والمكانة المرموقة.

وبالجملة فإن الجاحظ وصف الحاسد في الفقرة السابقة بعدة صفات سيئة خسيصة لم يذكرها صراحة، ولكنه ذكر التصرفات الدالة عليها؛ وأولى هذه الصفات الكذب والافتراء على المحسود، ثم الغيبة والنميمة، والنفاق والظلم والغش ونكران الجميل والخداع والمكر وكتمان شهادة الحق والتزوير.

وثاني أنواع المحسودين الذين ذكرهم الجاحظ لبيان ظواهر الحسد ومظاهره على الحاسد هو العالم؛ يقول الجاحظ: (وإن كان المحسود عالماً، قال: مبتدع، ولرأيه متبّع، حاطب ليل، ومبتغى نيل، لا يدرى ما حمل، قد ترك العمل، وأقبل على الحيل. قد أقبل بوجوه الناس إليه، وما أحققهم إذ انتالوا عليه، فقبحه الله من عالم، ما أعظم بليّته، وأقل رعته وأسوأ طعمته)^(١).

وهكذا ينظر الحاسد إلى كل الناس بمنظار أسود، لا يرى خيراً في أحد لأنه ليس أهله، وحتى العلماء لا ينجون من نظرته هذه - كما ذكر أبو عثمان في الفقرة السابقة - فهو يتهمهم بالابتداع، وهذه فريّة كفيلة

(١) الرسائل ٣ / ٨.

أن تقود العالم إلى سوء العاقبة، وبئس المصير لقول الرسول الكريم - ﷺ - : «... إياكم ومحدثات الأمور فكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»^(١).

إن نار الحسد والبغضاء في نفس الحاسد تجعله هكذا يكيل الاتهامات للناس على اختلاف منازلهم وطبقاتهم، وهو لا يكتفى باتهام العالم بالابتداع، ولكنه يحكم عليه بقوله (ولرأيه متبع) أي أنه معجب برأيه، لا يستريح إلا له. وليس هذا شأن العلم والعلماء؛ فالعلم؛ أخذ وعطاء، وتبادل آراء ومناقشة واقتناع، والحاسد - بذلك - يريد أن ينفي صفة (عالم) عن المحسود حقداً وحسداً، وغيظاً وكمداً. (حاطب ليل) وهذه الصفة - حط من شأن العالم أيضاً، أي إنه يتكلم بالغث والسمين، أو إنه يجنى على نفسه لعدم تفقده أمره وكلامه. وإذا كان العالم هذا شأنه فلا يستحق أن يُخلع عليه هذا الوصف؛ لأن العالم الحقيقي لا يتكلم إلا كلاماً مدروساً منظماً، ويأتى بالمقدمات التي تُسلمه إلى نتائج طبيعية لا غموض فيها ولا التواء.

كما أن هذا العالم - في نظر حاسده - ليس هو العالم الذي يبتغى بعلمه وجه الله وكفى، حتى ينفعه علمه في الدنيا والآخرة، ولكن الحاسد يقول عنه: (ومبتغى نيل) فعلمه ليس إلا للتكسب والعطاء، وهذه من أخس صفات العالم.

(١) سنن الدارمي - ١ / ٤٤ - ٤٥ - دار إحياء السنة النبوية - القاهرة.

والحاسد في هذه الفقرة التي أوردتها الجاحظ ؛ لبيان ظواهر الحسد ومظاهره على الحاسد ، يتدرج في وصفه للعالم المحسود إلى أن يخلع عنه هذه النعمة ؛ ليبين أنه «تفرغ للاحتيال والنصب» لا يدري ما حمل ، قد ترك العمل ، وأقبل على الحيل ، ويوجه التهم إلى هؤلاء الذين يجلسون أمامه ويستمعون منه فيصفهم بالغباوة والجهل والحمق ، لأن هذا ليس بالما وليس عنده من علم يفيد به غيره .

ثم يصب غضبه وحقدّه وغيظه على العالم - في آخر هذه الفقرة - فيقول : (فتبحه الله من عالم ما أعظم بليّته وأقل رعته وأسوأ طعمته) فيدعو عليه بالقبح ، ويتهمه بقلة الورع وأكل الحرام .

ونرى الجاحظ يدوس الألفاظ والجمل ؛ لجعلها معبرة تمام التعبير . ولغته هي اللغة التي يقتضيها العقل ويتطلبها التعبير عن الحقيقة ؛ فلما تحدث عن ظواهر الحسد على حاسدي العلماء استخدم الألفاظ مبتدع .. لرأيه متبع .. نيل .. حيل .. بليّته .. رعة .. طعمه .

وجاء الأسلوب طبيعياً بعيداً عن التعمويه والضعف . وعباراته تطول تارة وتقصّر أخرى فهي لا تسير على وتيرة واحدة مثل .. مبتدع ، لرأيه متبع ثم .. ما أحمقهم إذا انثالوا عليه . كما جاء البديع ممثلاً في السجع والجناس ليضفي على الكلام الروعة والجمال ؛ وليحيل الجفاف العلمي إلى لين ولطف تتقبله النفس ؛ كالسجع المطرف بين مبتدع ، متبع . والترصيع بين حمل ، العمل ، وكذا بين إليه وعليه ، وهو استخدام طيب لحروف الجر أيضاً .

وأما الصنف الثالث من المحسودين الذين عرضهم الجاحظ في هذا المقام فهو ذو الدين والذي يقول الجاحظ عن حاسده: «وإن كان المحسود ذا دين قال: مُتَصَنِّعٌ؛ يغزو ليوحى إليه، ويحجّ ليُثنى بشيء عليه، ويصوم لتقبل شهادته، ويظهر النسك ليُودع المال بيته، ويقرأ في المسجد ليزوِّجه جاره ابنته، ويحضر الجنائز لتعرف شهرته»^(١).

ومما يلحظ في هذه العبارة أن الحاسد لا يترك أحداً ذا نعمة، إلا وينفث فيه سموم حسده، حتى أولئك الذين تفضل الله عليهم بمساعدتهم على التدين وأداء حقه - تعالى - عليهم بأداء صلاتهم في المسجد يرجون رحمته ويخافون عذابه، أو الذين يهاجرون إلى الله تعالى إلى بيته الحرام؛ يقيمون ركناً من أركان دينهم. أو الذين يَحْرِمُونَ أنفسهم شهوة الطعام والشراب وسائر الشهوات في رمضان؛ يؤدّون فريضة الصيام. أو الذين يخشون ربهم ويقرءون القرآن. كل أولئك الذين يتقربون إلى خالقهم بشتى ألوان الطاعات، لا يسلمون من سموم الحاسد؛ يرصد حركاتهم وسكناتهم، ويؤل أفعالهم تأويلات تناسب مشاعره نحوهم؛ فقد وصف ذا الدين عامة بأنه يتصنّع هذه الأفعال؛ أي إنها لا تصدر عن اقتناع داخلي، وإنما يصنع المحسود ذلك كله ليحقق أغراضاً عددها الجاحظ بعد ذلك - مع كل واحد منهم.

(١) رسائل الجاحظ ٣ / ٨.

ففسره يتهم الذي يغزو في سبيل الله- وهي فريضة من أشرف الطاعات وأجل العبادات لأن الإنسان يجود فيها بنفسه وروحه وهو غاية ما يستطيع الإنسان أن يقدمه كما يقول الشاعر:

والجود بالمال جود فيه مكرمة والجود بالنفس أسمى غاية الجود
يتهمه الحاسد- كما يقول الجاحظ- بأنه يفعل ذلك ليوحى إليه
بأى غرض من الأغراض مادية أو معنوية، وهو- بهذا- لا يريد إلا
إرضاء الناس- في نظر حاسده- ومن يفعل ذلك لا خير في عمله مهما
كان عظيماً.

وهذا المتدين الذي يقصد الحج إلى بيت الله الحرام؛ لا لأداء الطاعة
أو إقامة فريضة أو إعلاء ركن من أركان الدين، إنما يفعل ذلك- في نظر
حاسده- ليقال له (حاج). كما أنه لا يؤدي فريضة الصوم إلا ليُشهد له
بالصلاح والورع؛ للاستشهاد به في الشهادات «ويُظهر النفسك ليودع
المال بيته، ظننا من الحاسد أنه ما فعل هذا إلا ليضمنه الناس على
أموالهم، فيودعونها عنده؛ فيستفيد منها. وهو لا يذهب إلى المسجد
إلا ليزوجه جاره ابنته؛ حيث إن الآباء لا يأتمنون على أعراضهم إلا
أهل التقوى والصلاح والورع، ويحضر الجنائز لتعرف شهرته، ويقول
الناس إنه لا يتركه واجب ويشارك الناس أفراحهم وأتراحهم.

وهكذا يكشف الجاحظ عن الوجه القبيح للحاسد بإبراز وبيان ظواهر
الحسد ومظاهره على لسان الحاسد في أسلوب سلس رقيق عذب طريف،

بألفاظ واضحة، واقعية محسوسة، بعيدة عن الخشونة والغرابة، وأداء متميز عذب، تساعد على عذوبته تلك الموسيقى الجميلة، التي يبعثها ذلك السجع باتحاد الفواصل في مثل: إليه، عليه. وفي شهادته، بيته، ابنته، شهرته؛ فقد أحدث هذا الترصيع تلك النغمة الهادئة العذبة الرقيقة التي لا تجعل القارئ يحس بملل وهو يقرأها.

ومن مظاهر الحسد- كما ذكر أبو عثمان في رسالة (فصل ما بين العداوة والحسد)- حسد مؤلفي الكتب والمصنفات. ومظهر ذلك أن الحاسد يعمد إلى عمل محسوده ومؤلفه فيضع مثله أو قريباً منه، ويعرضه على من حوله أو ممن ليست له خبرة بذلك، فيصدقونه ويظنون أن الكتاب من فكرته وتأليفه. وفي هذا الصدد يقول الجاحظ: «ولست آمن- جعلني الله فداك- أن تكون هذه الكتب التي أعنى بتأليفها، وأتأنق في ترصيعها، يتولى عرضها عليك من قد لبس لباس الزور في انتحال وضع مثلها، ونسب نفسه إلى القوة على نظائرها، والمعرفة بما يقاربها إن لم يكن أخاها فابن عمها، وتشبع بما لم يطعمه الله منها.

ولعل بعض من حوله أو بعض من يهزل به، ويرتفع في عقله، ويلهو بلبه ويضعه على طبطابة اللعب، وفي أرجوحة العبث يوهمه الحسد له على ما يدعى من ذلك، ويتقدم إلى آخرين في إيهامهم إياه ذلك، فيزيده فعلهم ضراوة بادعاء ما ليس معه، وهو منه عار..، فإذا رجع إلى الحقائق علم أن مثله كما قد قيل:

ومن يسكن البحرين يعظم طحاله ويُنبط بما فى البطن والبطن جائع
فيلتوى فى قراءتها، ويقبض لسانه على بسط ما يحتاج أن ينشره
منها، ويقصر فى تفخيم حروفها ولا يملأ فمه منها^(١).

لقد تمادى هذا الحاسد تمادياً شديداً وقلد فعل غيره حسداً،
واستخف بحقول من حوله لقلّة معرفتهم، وضعف عقولهم وسذاجة
أفكارهم فأوهمهم بأن العمل من فكره، ولم يسبقه إليه أحد، فصدقوه
وشجعوه، وأوهموه بأنه وحيد عصره، وفريد دهره فى هذا المجال،
فكان تشجيعهم له حافزاً للاستمرار فى أكذوبته فازداد - كما يقول
الجاحظ - ضراوة بادعاء ما ليس معه وهو منه عار.

وفى العبارة - موضع الدراسة هذه - يعرض الجاحظ عدة صور بيانية
يصور بها حال هذا الحاسد كقوله: قد لبس لباس الزور فى انتحالها. فهو
يصور الزور بالثياب التى تستر جسد الإنسان وتدارى عوراتّه، فإذا كان
هذا اللباس زوراً ليس حقيقة انكشف أمره وظهر على صورته الحقيقية.
وأما قوله: «وتشبع بما لم يطعمه الله منها». فهو تصوير للعلم أنه
طعام، فإذا كان الطعام الحقيقى يسد فراغ البطن وجوعته، فإن طعام
العلم يبدد فراغ الفكر وثغرتّه. وهذه الصورة لها ما لها فى بيان الحاجة
إلى العلم كالحاجة إلى الطعام.

(١) رسائل الجاحظ ١ / ٣٤٠ - ٣٤١.

وقوله: «يرتفع في عقله». استعارة مكنية شبه العقل كأنه فراغ متسع والحاسد يلهو ويرتفع فيه، وهي صورة تكشف عن حقيقة رؤايات الذين يصدقون من يوهمهم بنسبة أعمال غيرهم إليهم، كما أنها تبين مدى فراغ عقول هؤلاء وتفاهاتها. وقوله: (ويلهو بلبه) استعارة أخرى حيث شبه أن عقل هؤلاء دُمّية، أو أداة للعب يلهو بها الصغار، كما تبين عقم تفكيرهم.

وقوله: (ويضعه على طبطابة اللعب) جعل عقل المصدقين كأنه كرة يتقاذفها الأطفال وكذلك (في أرجوحة العبث).

وقد شبه الأفكار بالآدميين وعلاقتها بعلاقتهم في قوله (إن لم يكن أخاها فابن عمها) وهي استعارة تشخيصية جميلة. ثم هذا التدرج الطبيعي في قوله (أخاها وابن عمها) حيث قدم علاقة الأخوة على علاقة أبناء العم.

وجاءت الألفاظ مناسبة للفكرة التي هو بصددتها؛ ففي مجال التأليف والإنشاء جاءت الألفاظ: أعنى، تأليف، تأنق، ترصيف.

وفي مجال انتخالها جاءت الألفاظ: الزور، انتحال، وضع. وفي مجال السخرية ممن يصدقون الحاسد الأفاق جاءت الألفاظ: يهزل، يرتفع، يلهو، طبطابة، اللعب، أرجوحة، العبث، يوهم. وفي مجال أثر ذلك عليه جاءت الألفاظ: ضراوة، ادعاء، عار، يلتوى، يقبض، ينشر، يقصر.

وجاءت الأفكار فى أسلوب رصين، قوى متماسك، مرتب ترتيباً طبيعياً، يسلم بعضه إلى بعض، وقد زينته الموسيقى العذبة التى حدثت باتحاد فواصل الكلمات؛ كل مجموعة تشترك فى حرف أو حرفين، وهو لا يقصد إلى ذلك قصداً وإنما جاء عفو الخاطر مما جعله أشد وقعاً. وأحياناً يلجأ فى الألفاظ إلى الترادف للإيضاح والبيان وتأكيد المعنى فى نفس السامع كما فى قوله: يهزل، يرتع، يلهسو. وقوله: عقل، لب، وقوله: أعنى، أتأنق. وأحياناً أخرى يلجأ إلى التضاد لزيادة المعنى وضوحاً وإظهار ما قد يلتبس فهمه على القارئ؛ كما فى قوله: يقبض، يبسط، وقوله: ينشر ويقصر.

ومن مظاهر حسد العلماء مؤلفى المصنفات؛ أن يعمد الحاسد إلى سرقة فكرة الكتاب، لإهدائه إلى من يبتغون عندهم العطاء، خاصة إذا كان هذا المؤلف المسروق معمولاً ليقدمه صاحبه إلى ذى الشأن والسلطان، فنراه يقول: وإن كان السيد المؤلف له الكتاب نحريراً نقاباً، ونقريساً بليغاً وحاذقاً فطنا، وأعجزتهم الحيلة، سرقوا معانى ذلك الكتاب. وألفوا من أعراضه وحواشيه كتاباً، وأهدوه إلى ملك آخر، وامتوا إليه به، وهم قد ذموه وسلبوه لما رأوه منسوباً إلى وموسوماً بى^(١).

إن حسد هؤلاء الحساد أودى بهم إلى السطو والسرقة واللصوصية، وهى صفة من أخس الصفات البشرية وأرذلها.

(١) الرسائل: مصدر سابق ١ / ٣٥٠.

ومن مظاهر الحسد أن يعمد الحاسد إلى المؤلفات، يدفعه حسده إلى الحط من شأنها، والإقلال من قيمتها والطعن عليها بقول أو إشارة فيوهم فساد معانيها، ويؤمى إلى سقوط ألفاظها، من غير أن يظهر المعادة، والحسد لمؤلفها، والحمل عليها بقول يكون دليلاً على ما يُضمَر، وهو أبلغ ما يكون من قلب المستمع وأنجعه فيه، فيقع ذلك بخلده^(١)؛ وذلك إذا كان الحاسد لا يستطيع التأليف ويسطو على عمل محسوده كما مر بنا، فإنه لا يكف عن سلب محاسن الكتاب أو الهجوم عليه بطريقة شيطانية، وذلك بالحمل عليه بقول يكون دليلاً على ما يُضمَر.

إنه لا يظهر حسده وفي نفس الوقت لا يخفى مشاعره، وعدم إظهار حسده يجعل الناس يعتقدون أن نقده نزيه، وأن رؤيته لهذا المؤلف غير متأثرة بأي عامل من العوامل، ولذلك يقول الجاحظ في شأنه: (وهو أبلغ ما يكون من قلب المستمع وأنجعه فيه فيقع بخلده).

(١) نفس المصدر ١ / ٣٤١.

آثار الحسد في الفرد والمجتمع

أولاً: آثاره في الفرد:

الحسد ظاهرة اجتماعية خطيرة، ومرض نفسي يعود أثره على الحاسد نفسه، وهذا الأثر - فيما نحسب - جزاء الله العادل لهذا الحاسد الذي يؤذي محسوده بحسده، ويضر له العداء والبغض والكراهية، دون ذنب يقتضيه المحسود، أو خطأ يقع منه في حق الحاسد، ولما كان المحسود - في معظم أحواله - غافلاً عما يدبره له حاسده من مكائد ومشاكل فإن عين الله الساهرة لا تغفل أبداً، ويده بالظالمين الحاسدين في الدنيا والآخرة.

ولقد صور لنا الجاحظ ما يعانيه الحاسد من آلام نفسية، وآثار بدنية، وقلق واضطراب، ما يجعلنا نشفق عليه لولا حسده فيقول: ولو لم يدخل على الحاسد بعد تراكم الغموم على قلبه، واستمكن الحزن في جوفه، وكثرة مضضه ووساوس ضميره، وتنغص عمره وكدر نفسه، ونكد عيشه، إلا استصغاره نعمة الله عليه، وسخطه على سيده بما أفاد غيره، وتمنيه عليه أن يرجع في هبته إياه، وألا يرزق أحداً سواه، لكان عند ذوى العقول مرجوحاً، وكان لديهم في القياس مظلوماً، وقد قال بعض الأعراب: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد: نفس دائم،

وقلب هائم وحُزن لازم، والحاسد مخذول وموزور، والمحسود محبوب ومنصور، والحاسد مغموم ومهجور، والمحسود مغشًى ومزور^(١).

لقد رسم الجاحظ للحاسد صورة مذرية، ووضعاً سيئاً في بداية الفقرة بما وصفه به من صفات، وما يؤثر فيه من عوامل نفسية تنتابه بين الحين والحين، فضلاً عن سخطه - والعياذ بالله - على خالقه، لا لشيء إلا لأنه أنعم على غيره من غير أن ينقص ذلك منه شيئاً.

ثم عقد مقارنة بين الحاسد والمحسود في نهاية الفقرة تنم عن حس فني دقيق، ومعرفة بأحوال الناس ونفسياتهم.

لقد شبه الغموم التي تغمر الحاسد كأنها غيوم سوداء متراكمة، وكما أن الغيوم تحجب أشعة الشمس بضوئها ودقئها وبعثها للحياة على الأرض، فكذلك الغموم تتراكم على قلب الحاسد لتحجب عنه نور الإيمان فلم يعمر قلبه به أبداً.

وأفاد اللفظ استمكان الحزن في الجوف؛ مدى تأصل وعمق الحزن عند الحاسد، كما أن المضمض وهو التألم الشديد وصفه (بالكثرة) لبيان مقدار هذا التألم، ومدى ما يعاني الحاسد منه، وضميره ليس في هدوء أو استقرار وإنما هو في وسواس واضطراب. واللفظ (كدر) نقيض الصفاء جعله للنفس لبيان ما بها من خبث وغبار أوجده الحسد فيها (ونكد عيشه) أي إنه لا يهنأ أبداً ولا يرى السعادة والسرور في حياته.

(١) الرسائل مرجع سابق ٣ / ٥ - ٦.

وهذا الحاسد ليس متمرداً على محسوده فحسب ولكنه - لضعف عقيدته - متمرد على ربه ؛ سيده وخالقه ورازقه ، وهذا التمرد لا لصيبة حلت به ولا لشيء آخر سوى أن ربه أنعم على غيره كما أنعم عليه ، وكأنه يشارك ربه في ملكه ، ويقايسه في خلقه . من أجل ذلك استحق مقت الله وسخطه .

ثم يعقد الجاحظ مقارنة بين الحاسد والمحسود بما نقله عن بعض الأعراب الذى يقول : (ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد) فهو ظالم لأنه ظلم غيره ، وهو فى نفس الوقت مظلوم بما جنته نفسه عليه ، وبما عاد عليه من حسده ، فنفسه مكروب متصل كأن بداخله مرض عضال ، وقلبه مضطرب غير مستقر ، وجوفه ملىء بالأحزان على ما تفضل الله به على عباده ، فهو بذلك مهزوم دائماً ومرتكب للذنوب والمعاصى والآثام . وأما محسوده فإنه مستحق لعطف الناس ، وشفقتهم فهو محبوب ومنصور من الله على حاسده ، وإذا كان الحاسد مغموماً بهذا الشكل فإن الناس تهجره ولا تزوره وأما المحسود فإنه مغشى ومزور .

وقد أنهى الجاحظ العبارة السابقة بجمل قصيرة تتحد فواصلها فى حرفين أو حرف واحد ، لتحدث جرساً موسيقياً يناسب أحزان الحاسد ويصف إيقاعها داخله : نفس دائم ، وقلب هائم ، وحزن لازم ، كل جملة من كلمتين . والمبتدأ فى كل منها من ثلاثة حروف والخبر من أربعة على وزن فاعل ؛ تقسيم بديع ، ودقة وروعة .

ويأتى - بعد ذلك - إيقاع آخر ذو نغمة تختلف عن الأول فى أربع
جمل وفى كل جملة ثلاث كلمات؛ مبتدأ الأولى والثالث اسم فاعل،
وخبره اسم مفعول، ومبتدأ الثانية والرابعة اسم مفعول وخبره اسم
مفعول أيضاً وفواصل الكلمات متحدة فى الجمل الأربع بحرفين:
موزور، منصور، مهجور، مزور. هذا الترصيع أوجد إيقاعاً منتظماً
له أثره على القارئ.

والجاحظ الفنان الخبير بطبائع الناس وأخلاقهم يبين أثر الحسد
على الفرد بياناً دقيقاً لا يحتاج إلى بيان آخر لأنه يملك أزمة الكلام
فلا تعصيه كلمة مهما دق موضوعها، ومهما أخفى سبب وصفها، ولا
يطوى لسانه على معنى فى قلبه لا يتسنى له إبرازه بالنطق أو تمثيله
باللفظ فيقول: (وما لقيت حاسداً قط إلا تبين لك مكنونه بتغير لونه،
وتخوض عينه، وإخفاء سلامه والإقبال على غيرك والإعراض عنك،
والاستئثار لحديثك والخلاف لرأيك)^(١) وكأن الجاحظ - بهذا - شق
صدر الحاسد وسبر غوره، ليوضح ما يكنه لمحسوده، فأرسل من
الداخل هذه العبارات المعبرة تماماً عن نفس الحاسد.

وفى العبارة يستخدم الجاحظ الصوت والصورة واللون؛ فوجه الحاسد
متغير مصفر من كثرة الهموم التى تنتابه، والعيون غائرة مدفونة فى

(١) الرسائل ٣ / ٨ - وانظر ص ١٠٢، ١٠٥ من هذا البحث.

جمجمته ، وهو مقطب الجبين ، وإذا أقبل عليه محسوده ليسلم عليه سلم عليه بأطراف أصابعه ، ثم أشاح بوجهه عنه . وصوت محسوده وحديثه مكروه إلى نفسه ، ولا يوافق على رأى أبداً مهما كانت وجاهته .

ولقد ضرب الجاحظ على حال الحاسد - هذا - مثلاً بعبد الله بن أبي ابن سلول ؛ فبعد أن عرض ما كان عليه قبل قدوم النبي - ﷺ - المدينة كما ذكرنا من قبل قال عنه بعد أن عز الإسلام وارتفعت رايته : شمع بأنفه .. وأظهر نفاقه .. فحمق بعد اللب وجهل بعد العقل .. ثم برر الجاحظ هذه التصرفات منه بما ذكره عنه أصحابه عندما شكاه رسول الله - ﷺ - إليهم فقالوا : يا رسول الله لا تلمه ، فإننا كنا قد عقدنا له الخرز قبل قدومك لنتوجه»^(١) .

ثم علق الجاحظ على ذلك بقوله : «ولو سلم المخذول قلبه من الحسد لكان من الإسلام بمكان ، ومن السؤدد بارتفاع . فوضعه الله لحسده وأظهر نفاقه»^(٢) .

وللحسد وطأة شديدة على صاحبه ، وقوة عاتية يصورها الجاحظ في صورة حيوان جامح متمرّد لا يستطيع صاحبه التغلب عليه دائماً فيقول : «وأنا أقول حقاً ما خالط الحسد قلباً إلا لم يمكنه ضبطه ، ولا قدر على تسجينه وكتمانه ، حتى يتمرد عليه بظهوره وإعلانه فيستعبده

(١) رسائل الجاحظ ٣ / ١٠ .

(٢) نفسه المصدر ونفس الصفحة .

ويستميله ، ويستنطقه لظهوره عليه»^(١). قوة هائلة جبارة متمردة على صاحبها دائماً في كل حال من حالاته ، تسيطر على لسانه فلا ينطق إلا بها ، وتسيطر على عقله وتسيطر على كيانه. حتى إن الجاحظ ليجعل الحاسد عبداً لهذه القوة ، بل إن لها ما لأكثر من السيد على عبده من تأثير وتوجيه ، وتارة يشبه أثر هذه القوة بأثر السلطان على رعيته ، أو الرجل على زوجته في قوله : فهو أغلب على صاحبه من السيد على عبده ، ومن السلطان على رعيته ، ومن الرجل على زوجته ومن الأسر على أسيره^(٢).

ثانياً: آثاره في المجتمع:

ولما كان الحسد ظاهرة اجتماعية ، يوجد باجتماع الناس ، واطلاعهم على أحوال بعضهم ، والتقاءهم داخل مجتمع واحد ، كان له أثره السيء في التجمع البشري ، وإذ كنا نقول : إنه آفة المجتمع ، وممرض خطير يستشري في أوصاله ، فلا بد له - والحالة هذه - من آثار تعود على المجتمع بالضرر والشور ، جمع الجاحظ معظمها في قوله : «منه تتولد العداوة ، وهو سبب كل قطيعة ، ومنتج كل وحشة ، ومفرق كل جماعة ، وقاطع كل رحم بين الأقرباء ، ومحدث التفرق

(١) نفسه ١٢ / ٣.

(٢) رسائل الجاحظ مصدر سابق ٣ / ٥.

بين القرناء ، وملقح الشر بين الخلطاء ، يكمن في الصدر كمون النار في الحجر»^(١).

شُرور كثيرة ، وأمراض خطيرة ، وعداوات وقطع للأرحام يحدثها هذا المرض اللعين ، وسنتحدث عن العداوة معه في حديث مستقل إن شاء الله.

(وهو سبب كل قطيعة) والقطيعة من القطع وانفصام العرى ، أى إنه يتسبب في قطع علاقات وأواصر المحبة بين الناس ؛ لبذره بذور الكراهية والبغضاء في النفوس.

وأما قوله : (منتج كل وحشة) فإنها استعارة معبرة ؛ حيث شبه الحسد بالحيوان الذى يلد وينتج الصغار ، ولكن الحسد ينتج الوحشة والتفرقة على طريقة الاستعارة المكنية. وقوله (مفرق كل جماعة) شبهه أيضاً كأنه حيوان مفترس يهجم على التجمعات البشرية فتتفرق منه الناس وتجري بعيداً عنه.

وأما أظهر آثار الحسد فى المجتمع وأخطرها- كما يقول عنه أبو عثمان- فإنه (قاطع كل رحم بين الأقرباء) فإذا كان سبباً فى عداوات الناس البعيدة ، فإنه أشد أثراً وأكثر خطراً إذا كان بين الأقرباء الذين يترابطون بأواصر الرحم. ولقد بين الله لنا فى كتابه الكريم أن قطع الأرحام فساد

(١) المصدر نفسه ، ونفس الجزء والصفحة.

فى الأرض وأن قاطعى الأرحام ملعونون؛ أى ليس لهم نصيب فى رحمة الله يوم القيامة، قد أصابهم الصمم والعمى فلا يسمعون الخير ولا يرونه قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطَعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۚ﴾ (٢٣) (١) ثم أعقب الله ذلك بسؤال يستنكر فيه على من لا يتدبرون القرآن ولا يفهمون معانيه، أو يفهمونها ولا يطبقونها، وكأن قلوبهم وعقولهم قد أوصدت أمام الحق بأقفال محكمة يقول تعالى - بعد الآيتين السابقتين - : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۚ﴾ (٢٤) (٢).

روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ من القطيعة قال نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت بلى قال فذلك لك ثم قال رسول الله - ﷺ -: اقرءوا إن شئتم «فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض» (٣) الآيات الثلاث من سورة محمد ﷺ.

إن هذه القطيعة وذلك الجزاء الذى ينتظر صاحبه والعاقبة السيئة له سببها الحسد كما ذكر الجاحظ.

(١) سورة محمد (٢٢ - ٢٣).

(٢) سورة محمد الآية رقم ٢٤.

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووى: ١١٢ / ١٦.

ومن آثاره في المجتمع - أيضاً - كما ذكر الجاحظ أنه يحدث التفرق بين القرناء والله سبحانه وتعالى يحذر من مغبة التفرق ويدعو إلى التآلف والوحدة فيقول: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾^(١).

فإذا كان الله قد وحدنا على كلمة (لا إله إلا الله)، وجمع شمل الأمة الإسلامية ودعاها إلى الاستمساك بهذا الدين العظيم، فإن الحاسد يسعى إلى تفريق هذه الكلمة فلا تقوى على مواجهة أعدائها.

«وملقح الشر بين الخلطاء»؛ استعارة جميلة معبرة تبين أن الحسد هو الذي يغذى الشر ويذكي ناره ويستمد منه بقاءه.

وأخيراً فإنه - أي الحسد - كما ذكر الجاحظ (يكمن في الصدر كمون النار في الحجر) ولم يقل كمون النار في الهشيم، لأن المعروف أن الحجر يحتفظ بالحرارة داخله لفترات طويلة وربما كانت سببا في تفتيته، وكذلك الحسد شبهه بالنار الشديدة، وصور قلب الحاسد بالحجر، فهو بحسده وكمده والنار متلازمان أبداً. وحسن تشبيه قلب الحاسد بالحجر لتشابههما في الصلابة وعدم التسليم بقضاء الله في خلقه.

وفى قوله (يكمن) ما يدل على الاستتار والاختفاء لا يراه أحد ولا يعرفه إلا من خلال تصرفاته الظاهرة.

(١) سورة آل عمران من الآية رقم (١٠٣).

المصادر والمراجع

- ١ - الأحاديث القدسية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
- ٢ - إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالي. وبهامشة تخريج الأحاديث للحافظ العراقي. دار الفد العربي. سنة ١٩٩٦م.
- ٣ - أساس البلاغة للزمخشري. (جسار الله أبو القاسم محمود ابن عمر). الهيئة العامة للكتاب. ط. ثالثة ١٩٨٥م.
- ٤ - الأمالي للقالى. (أبى على إسماعيل بن القاسم). الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٥م.
- ٥ - أنساب العرب للسمعاني. (أبى بكر سعد عبد الكريم محمد بن منصور التميمي). دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان. مصطفى الحلبي. ط. ثانية ١٩٥٢/١٣٧١م.
- ٦ - الإيضاح فى تلخيص للقزوينى. مكتبة الآداب. المفتاح
- ٧ - البخلاء للجاحظ. (أبى عثمان عمرو بن بحر بن محبوب). تحقيق د. طه الحاجرى. دار المعارف ط. سادسة ١٩٨١م.

- ٨ - البداية والنهاية لابن كثير. (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل ابن عمر). دار الغد العربي. ط. أولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- ٩ - البيان والتبيين للجاحظ. بتحقيق عبد السلام هارون. الخانجي.
- ١٠ - تاريخ الإسلام للذهبي. (الحافظ شمس الدين محمد ابن أحمد بن عثمان). دار الغد العربي. ١٩٩٦م.
- ١١ - تاريخ بغداد للبغدادى. (الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب). المكتبة السلفية. المدينة المنورة.
- ١٢ - تهذيب التهذيب لابن حجر. (الحافظ شهاب الدين أحمد ابن علي). دار الفكر. ط. أولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- ١٣ - الجامع الصحيح (سنن الترمذى). لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة. دار الحديث - القاهرة.
- ١٤ - الجامع الصغير للسيوطى. (جلال الدين عبد الرحمن). دار القلم.
- ١٥ - الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) لأبى بكر محمد بن أحمد. دار الشعب.
- ١٦ - جمهرة أنساب لابن حزم. (أبى محمد علي بن أحمد بن سعيد) تحقيق عبد السلام هارون. دار المعارف. ط. ثالثة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
- ١٧ - الحيوان للجاحظ. (مصطفى البابى الحلبي) ١٩٣٨م.

- ١٨ - خزائن الأدب للبغدادي. (عبد القادر بن عمر) بتحقيق عبد السلام هارون. الخانجي.
- ١٩ - رسائل الجاحظ للجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون.
- ٢٠ - زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم. (شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن بكر بن أيوب بن سعد الزرعي). ت: ٧٥١ المطبعة المصرية ومكتبتها.
- ٢١ - السحر والحسد محمد متولى الشعراوي. مؤسسة أخبار اليوم.
- ٢٢ - سنن أبي داود لأبي داود (الإمام الحافظ أبي داود سليمان ابن الأشعث السجستاني الأزدي). ٢٠٢-٢٧٥هـ. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية. صيدا. بيروت.
- ٢٣ - سنن الدرامي للرامي. دار إحياء السنة النبوية.
- ٢٤ - سنن النسائي بشرح السيوطي للنسائي. (الإمام الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد شعيب بن علي ابن بحر النسائي). دار الحديث- القاهرة. ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- ٢٥ - سيرة النبي لابن إسحق. (أبو عبد الله محمد بن إسحق ابن يسار الملقب). ت: ١٥١هـ. وهذبها ابن هشام. (أبو محمد عبد الملك بن هشام). ت: ٢١٨ فنسبت إليه وحققها محمد محي الدين عبد الحميد. محمد علي صبيح.

- ٢٦ - شرح القصائد السبع لابن الأنباري (أبو بكر محمد بن القاسم) بتحقيق عبدالسلام هارون. دار المعارف. ط. خامسة ١٩٩٣م.
- ٢٧ - صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. دار الشعب.
- ٢٨ - صحيح مسلم بشرح للإمام مسلم (أبي الحسين بن مسلم بن الحجاج القشيري). دار الريان. ط. أولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- ٢٩ - ضحى الإسلام لأحمد أمين. لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- ٣٠ - عمدة التفسير لابن كثير. تحقيق أحمد شاكر. دار المعارف. ١٩٥٦م.
- ٣١ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر. دار الفكر. ط. أولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- ٣٢ - القاموس المحيط الفيروز آبادي مصطفى الحلبي. ط. ثانية ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.
- ٣٣ - قصص الأنبياء لابن كثير. المكتبة التوفيقية - القاهرة.
- ٣٤ - لسان العرب لابن منظور. دار المعارف ١٩٧٩م.
- ٣٥ - مجمع الأمثال للميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم). تحقيق د. محمد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة الإيمان.

- ٣٦ - مروج الذهب للمسعودي (أبو الحسين علي بن الحسين المسعودي). ط. ثانية. دار الأندلس، بيروت - لبنان، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م.
- ٣٧ - مسند الإمام أحمد للإمام أحمد بن حنبل. دار الفكر العربي.
- ٣٨ - معجم الأدباء لياقوت الحموي عيسى البابي الحلبي.
- ٣٩ - المعجم الصغير للطبراني (أبو القاسم سليمان بن أحمد ابن أيوب). دار الكتب العلمية. بيروت- لبنان ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- ٤٠ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقي. دار الشعب.
- ٤١ - المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية.
- ٤٢ - مفاتيح الغيب للفخر الرازي (محمد بن عمر بن الحسين). دار الفد العربي.
- ٤٣ - مفتاح كنوز السنة وضعه بالإنجليزية أ.ي فنسك. تعريب محمد فؤاد عبد الباقي. راجعه الشيخ خليل اليس. دار القلم. بيروت- لبنان.
- ٤٤ - المفردات في غريب اللراغب الأصفهاني. (أبي القاسم الحسين ابن محمد). دار المعرفة. بيروت - لبنان.

- ٤٥ - الملل والنحل للشهرستاني. (أبى الفتح محمد بن عبد الكريم). الأدبية ١٣١٧هـ.
- ٤٦ - منهاج القاصدين لابن قدامة (الشيخ أحمد بن عبد الرحمن). دار التراث.
- ٤٧ - الموسوعة الذهبية د. فاطمة محجوب. دار الغد العربي.
- ٤٨ - الموطأ للإمام مالك بن أنس (رحمته الله). مكتبة زهران.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
مقدمة	٩
تعريف الحسد	٢١
أنواع الحسد	٢٥
حقيقة الحسد	٣١
الحسد والعين	٥٠
الحسد فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة	٥٦
• أولاً: الحسد فى القرآن الكريم	٥٦
• موقف الجاحظ من آيات الحسد	٥٩
• ثانياً: الحسد فى السنة النبوية المطهرة	٦١
تاريخ الحسد فى أدب الجاحظ	٦٧
الحسد فى السماوات (حسد إبليس لآدم)	٦٩
الحسد فى الأرض	٧٧
١ - حسد ولدى آدم	٧٧

الموضوع	الصفحة
٢ - حسد إخوة يوسف	٨٣
٣ - حسد اليهود لسيدنا محمد ﷺ	٩٢
٤ - حسد المنافقين	٩٤
علاج الحسد	٩٩
مظاهر الحسد وظواهره على الحاسد	١١٨
آثار الحسد فى الفرد والمجتمع	١٣٤
• أولاً: آثاره فى الفرد	١٣٤
• ثانياً: آثاره فى المجتمع	١٣٩
المصادر والمراجع	١٤٣

○ شخصيات

للراحل / محمود عوض

○ حضارة الكسل وآلام الظهر والقلب

عبد الفتاح عنانى

يصدر
قريباً

الاشتراكات

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

– داخل جمهورية مصر العربية ٦٠ جنيهاً.

– الدول العربية واتحاد البريد العربى ٨٠ دولارًا أمريكيًا.

– الدول الأجنبية ٩٠ دولارًا أمريكيًا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بمجلة أكتوبر ١١١٩

كورنيش النيل – ماسبيرو – القاهرة

يناقش هذا الكتاب قضية مهمة
وخطيرة منذ بدء الخليقة وهي "الحسد"
وقد استعرض المؤلف تاريخ الحسد منذ
بدأ في السماوات من حسد إبليس لأدم ثم
بعد ذلك حسد قابيل لهابيل ثم توالى بعد
ذلك أشكال الحسد وألوانه وصنوفه.

وقد تناول المؤلف هذه القضية من
منظور إسلامي مستشهدا بالنصوص
القرآنية والأحاديث النبوية التي عالجت
الموضوع وسار على هديها شارحا وموضحا
ومبيناً ما وسعه الشرح والتوضيح.

وقد ربط المؤلف بين الماضي والحاضر
بين الدراسات السابقة عن الحسد والعلم
الحديث كما بين المؤلف أن أداة الحسد
وهي العين يخرج منها شعاع مدمر على
المحسود.

ووصف الحاسد حالة حسده من تخاصم
عينه واصفرار وجهه وانتفاخ أوداجه.
وأخيرا ذكر المؤلف العلاج الذي
ذكره القرآن الكريم والسنة المطهرة
لهذا الداء وهو علاج شاف بإذن الله.



دارالمعارف

٤٠٧٩٧٥/٠١



Bibliotheca Alexandrina



0750561

69

7